أنـــدريـــه مــــــوروا
عضوا المجمع اللغوى الفرنسى

وازن الأرواح

تعريب
الإمام الأكبر: الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الإسلام رضي الله عنه

مكتبة الإيمان
للطباعة والنشر والتوزيع
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

مقدمة

بقلم: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الإسلام رضى الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن الحديث عن الروح أثار على مر الزمن الكثير من الأسئلة، والعديد من الأبحاث والدراسات المستفيضة؛ ولم تتقدم الدراسات فى موضوع جوهر الروح وكنهها خطوة واحدة، منذ أن بدأت الدراسات، ومن أجل ذلك فصل علم النفس الحديث بين أمرين فى دراسة الروح:

الأمر الأول: هو دراسة الظواهر والمظاهر التى تخضع للملاحظة والتجربة.

وهذه الدراسة يمكن أن تثمر مبادئ وقواعد تكون علم النفس، ويكون مثلها فى علم النفس، كمثل ظواهر الطبيعة التى تكون موضوع علم الطبيعة، أو ظواهر الكيمياء التى تكون موضوع علم الكيمياء.

الأمر الثانى: هو دراسة الروح فى ذاتها، فى جوهرها.

ولقد رأى علماء النفس أن يعزلوا هذا الموضوع عن جوهم العلمى، وأن يتركوه للفلاسفة: يتخيلون فيه ويتوهمون.

وأخذ الفلاسفة يخوضون فى الموضوع عقليا، ويحاولون الوصول فيه إلى يقين، ولكنهم مازالو يبحثون.

واختلف المتكلمون فى رأيهم عن جوهرها، ومازالوا مختلفين.

إن البحث العلمى أبعد موضوع جوهر الروح عن مجاله. . وأن البحث العقلى لم يصل فى موضوع جوهر الروح إلى رأى موحد، واختلف علماء الكلام!!!

ونحب أن نتساءل الآن: ما هو رأى الأدباء فى موضوع الروح؟ وهل إذا عالجوه يخفقون كما أخفق الفلاسفة، وكما أخفق علماء الكلام؟

إن هذه القصة التى بين يدى القارئ، تعطى صورة عن معالجة الأدباء للموضوع، وهى بقلم كاتب من أشهر الكتاب فى فرنسا فى العصور الحديثة هو: أندريه موروا.

وقد اشتهر بالتحليل النفسى والاجتماعى، ويتميز أدبه بأنه أدب فكرة، كما هو أدب أسلوب.

وقد كنت قرأتها منذ زمن بعيد؛ لقد قرأتها أيام أن كنت طالبا بجامعة باريس، وترجمتها بعد عودتى، وكنت إذ ذاك مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية. . ولعل تدريسى لعلم النفس بالكلية على أسلوب الدراسة فى العصر الحديث -أى على أسلوب أتجنب فيه البحث فى النفس وجوهرها- هو الذى حدا بى إلى ترجمتها، لأسد ثغرة فى الدراسة. . . ولقد أعجبنى على الخصوص، هذه المناقشات التى دارت أثناء القصة عن النفس فى مستوى راق، وفى صورة جميلة.

ولا أزعم -وقد ترجمت القصة- أنها حلت مسألة الروح، أو أنها أتت بالكلمة الأخيرة فى الموضوع، ولكن الذى لا أشك فيه، أنها ستثير التفكير فى أمر الروح من جوانب متعددة، وتكون بذلك قد أدت الغاية التى توخيتها من ترجمتها.

لقد أحببت -فضلا عن سد الثغرة فى الدراسة- أن أنقل الناس -ولو لفترة محدودة- عن التفكير فى المادة، إلى التفكير فى الروح. .

فلقد انصرف الناس -بكل ما يملكون من طاقة- إلى الجرى وراء الدنيا، فاستعبدتهم، وصرفتهم حتى عن التفكير فى أنفسهم، وأجهدتهم حينما رأوا ألا سند لهم من عمل صالح يربطهم بالله، فبدوا وعليهم سمات المساكين، وطابع المجهدين: مجردين عن قوة روحية، تدفعهم فى عارج القدس، وفى منازل الأرواح، إلى القرب من النور الأزلى: نور الله.

إن الناس يعيشون فى ظلمة من النفس، وفى ظلمة من البعد عن الله، وفى ظلمة من شقاء المعصية: لا يتعظون بالموت. وكفى بالموت واعظا، ولايستجيبون لنداءالدين، وأن فيه -لو تأملوه- علاجا لآلامهم، وبلسما لجراحهم، وإخراجا لهم من الضيق والهم، إلى السعادة والنعيم.

وإذا ما أخرجتهم هذه القصة من الآلية التى يسيرون على نسقها فى حياتهم، فوضعتهم فى جو آخر، وصرفتهم -فترة من الزمن- من التفكير فى المادة إلى التفكير فى الروح، فإنها تكون بذلك قد أدت الهدف منها.

وقد يتساءل قوم قائلين:

هل لهذه القصة صلة بما يسمى «تحضير الأرواح» الذى شاع فى هذه الأيام؟

أتؤيد القصة تحضير الأرواح؟

وعن هذا السؤال نقول:

إن القصة لا شأن لها بهذا التهريج، الذى يسميه ممثلوه «تحضير الأرواح» فليس ما يحضر فى هذه الجلسات التى يعقدونها، أرواحاً لبنى البشر، وإنما هو أنواع من الجن تحضر سخرية ببنى البشرأو تضليلا لهم.

ولقد كتب عن تحضير الأرواح، فضيلة العارف بالله، المحدث الكبير، والعالم النحرير، فضيلة الشيخ محمد الحافظ التجانى، ردا على سؤال، فقال:

وهذا المذهب يزعم أصحابه أن الأرواح التى انتقلت من هذه الدار يستوى فيها المؤمن الكافر، والعاصى والطائع، وإنما العبرة عندهم بأن لا يؤذى الإنسان غيره، وتكون أخلاقه: الإحسان إلى الناس، ومن كان مجرما قاتلاً فاسقا، مؤذيا لغيره، يمكث مدة فى مكان خاص ليهذب ويصفى، ثم يلتحق بالمنعمين.

وقد استخدمت اليهودية العالمية هذا المذهب، لتحطيم العصبيات القومية والعصبيات الدينية، على وفق الخطة التى رسموها لتحطيم العصبيات لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا فى بلد يتعصب لقوميته أو لدينه، فمن مصلحتهم تحطيم العصبيات، وقد نجحوا فى إحلال التعصب للقومية -فى بلاد المسلمين- بدل العصبية الإسلامية، فصار المبدأ فى بلاد الإسلام: أن كل مواطن فى بلد، له الحق الذى لأى مواطن آخر، مهما كان دينه أوتمسكه بدين الإسلام، حتى لو ارتد عن الإسلام وفسق وشرب الخمر، إلا فيما يحرمه القانون الوضعى، فأصبح بهذا كل مسلم -فى دولة إسلامية- أجنبيا، بالنسبة لأية دولة إسلامية أخرى. كل ذلك عمل له اليهود: إما مباشرة، وإما بواسطة إغراء الدول بالعالم الإسلامى.

وإذا نظرنا فى التاريخ، وجدنا مثلا: أن احتلال الجزائر، كان من اليهود، وأن تحطيم الخلافة الإسلامية، كان بيد اليهود فهم الذين عملوا على تحطيم الخلافة الإسلامية وكان منشأ المؤامرة يهود سلانيك، وقد حدثنى المرحوم العلامة الشيخ زاهد الكوثرى -وهو أعظم عالم فى تركيا فى عصره، جمع بين الفقه والحديث، والأصول والتاريخ-: «إن الذى

أقال السلطان عبد الحميد عن كرسى الخلافة، ليسيطر من يعملون وراءهم على الخلافة ممن خدعوا باسم الحرية- كان ذلك الرجل يهوديا معروفا باسمه وعينه».

وصرنا الآن دولاً متفرقة، متخالفة متخاذلة، لا تجمعها كلمة الإسلام، وكل يعمل فى دولته ارتجالا، وليس لهم منهج إسلامى متفق عليه.

مع أن هذا المذهب الروحانى يعترف بأن من الأرواح من يكذب فى أخباره، وعلى هذا فإن هذا المصدر الذى يكذب فيه بعضهم فى أخباره، يعتبر غير مأمون ولا معصوم.

أما عن هذه الأرواح: فإن أوربا التى هى منبع هذا المذهب الحديث، وقدوة من اغتر به منا، كانت قد كفرت بما وراء المادة فلما بدأت الجن يتصلون ببعضهم، وثبت لدى هذا البعض أن هؤلاء المتصلين بهم من عالم آخر غير العالم المادى المعروف، فسموه أرواحا: لأنهم يسمون ما عدا المادة: روحا.

والاتصال بالجن، معروف فى المشرق والمغرب -وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1]. وانظر تفسيرها. وإذا كان لكل ابن آدم قرين: كما جاء فى الحديث الشريف عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة... قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياى: إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم، فلا يأمرنى إلا بخير»[2]. فهذا القرين يعلم أفعال قرينه من الإنس، ويخبر بها من يزعمون الاتصال بالأرواح، كما أن بعض عالم

(١) سورة الجن: الآية ٦

(٢) رواه مسلم فى بدء الخلق ٢٨١٤ صحيح مسلم جـ٤.

الجن يتصلون ببعض الإنس، ومثل هذه الأمور لا يعتمد عليها، وقد قال الله تبارك وتعالى:

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[1] أ. هـ.

هذا ما كتبه فضيلة الشيخ محمد الحافظ.

ونذكر هنا فى هذا الموضوع واقعة لها مغزاها العميق حدثت سنة ١٩٦٤م.

فى عام ١٩٦٤ كنت فى الحج، وكان هناك بعثة لجمعية من أقوى جميعات تحضير الأرواح، سافرت -مستعدة بكل ما تستطيع- لتحضير الأرواح فى المسجد الحرام، وتمكنت من الحصول على غرفة فى المسجد لتبيت فيها.

وبدأت بعد صلاة العشاء فى تحضير الأرواح، واستمرت طيلة الليل فى مجهود مرهق، وفى دأب متتابع، فلم تستطع تحضير روح واحدة، ولو كان ما يحضر إنما هو أرواح بنى البشر من المسلمين العادين، أو من كبار الصالحين، كما يزعمون، لسارعت هذه الأرواح متنافسة، فى الحضور إلى هذا المكان الطاهر، الذى تهفو إليه الأفئدة، وتتعلق به الأرواح.

وبعد انتهاء الحج، سافرت البعثة إلى جدة، لتذهب منها إلى المدينة المنورة، وكان بالبعثة رجل قوى فى أكمل صحة وانضر حال، و إذا به فى جدة يبدأ فى التقايؤ، ثم يقئ دما، ويستمر فى تقايؤ الدم إلى أن تنتهى منه الحياة.

وواصلت البعثة رحلتها إلى المدينة المنورة، وفى المدينة المنورة بدأت عملها فى الحرم النبوى، واستمرت طيلة الليل فى جهد مستمر، وفى

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

عمل لا يفتر.. ولم تحضر روح واحدة، فكان ذلك دليلا واضحا، على أن ما يحضر فى جلساتهم إنما هو جن وليس بأرواح.. ولا يتأتى أن يأتى الجن إلى أقدس الأمكنة: المسجد الحرام والمسجد النبوى، متقمصا أو متلصصا.

وان فكرة الشيخ الحافظ: من أن اليهود من وراء ذلك للأسباب التى ذكرها -إنما هى الفكرة التى يؤمن بها الآن، كل من يتتبع تاريخ فكرة تحضير الأرواح.

ولعل فى ذلك ما يجعل هؤلاء الذين يتخذون من تحضير الأرواح، عقيدة تشغلهم عن دينهم، وعن إسلامهم، لعل فى ذلك ما يكفى لردهم عن باطل.

ونعود إلى موضوع الروح من جديد:

لقد دفعت صعوبة دراسة الموضوع، بعض المفسرين للقرآن الكريم، إلى أن يتجه فى تفسير قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1].

إلى أن هذه الآية الكريمة إنما هى نهى عن البحث فى الروح، وذلك أنه ما دامت الروح من أمر الله، فهى -إذن- سر من الأسرار التى لا يمكن الكشف عنها، وفسروا الروح بأنها الروح الإنسانية بمعناها العادى.

وعارض هؤلاء غيرهم، وفسروا الروح بمعنى آخر.

ولقد ساهم أبو الحسن الشاذلى فى الموضوع، وجاء فى تفسير الآية الكريمة برأى فيه أصالة وبراعة.

ولقد سبق أن كتبنا فى كتابنا «المدرسة الشاذلية» مبينين رأى أبى الحسن كما يلى:

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

يقول الله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

هذه الآية الكريمة، كانت مثار خلاف شديد بين المفسرين من مختلف النزعات: وذلك أن كثيرا من المفسرين، رأوا أن الآية إنما هى نهى عن البحث فى الروح -بمعنى النفس الإنسانية لأنها من أمر الله، فالله سبحانه- وهى من أمره- هو وحده العالم بها.

وعارض هؤلاء كثيرون: يرون أن الروح فى الآية الكريمة، إنما هو القرآن الكريم، بدليل سياق الآيات السابقة واللاحقة، فإنها كلها فى القرآن الكريم، والقرآن يسمى روحا، كما أن جبريل عليه السلام يسمى روحا.

هل الآية نهى عن البحث فى الروح؟ أم الروح فى الآية شئ آخر غير النفس الانسانية؟

ولم يأخذ أبو الحسن بهذ الرأى أو بذاك، وإنما أدلى برأى نشهد بأصالته، وعمقه ودقته، يقول رضى الله عنه:

ومن ظن أن هذا العلم -أعنى علم الروح وغيره، مما ذكر وما لم يذكر- لم يحط به الخاصة العليا (وهم) أهل البدء الأعلى- فقد وقع فى عظيمين:

جهل أولياء الله، إذ وصفهم بالقصور عن ذلك.

وظن بربه أنه منعهم.. وكيف يجوز أن يظن على مخصوص ذلك؟ أى بعلم ذلك. وسرى به التكذيب إلى القدرة[1] والشرع بقوله عن اليهود أو عن العرب[2] كما تضمن الخلاف.

---

(١) باعتقاد أنها لا تصلح لتعليم الخاصة علم الأرواح.

(٢) اتهم الشرع بمنع معرفة الخاصة (علم الروح) جريا وراء ما قاله اليهود والعرب الذين لم ياكونوا تشرفوا بالإسلام

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

فما الدليل لك منهما على جهل الصديقين، وأهل خاصة الله العليا؟

والكشف عن هـذا: أن السـؤال -هنا- يقع بأربعـة أحـرف: بهل، وكيف، ولم، ومن أين.

فهل: يقع بها السؤال عن الشئ، أموجود هو أو معدوم؟

وكيف: يقع بها السؤال عن حال الشئ؟

ولم يقع بها السؤال عن العلة؟

وليس فى الآية شئ من هذا؛ فإنك إن قلت فيها معنى (هل)، ومعنى (هل)، يقتـضى: هل الروح موجود أو مـعدوم؟ وقد عرفـوا وجوده من قـبل: ولولا ذلك لما قال: ويـسألونك عن الروح، فـثبت أنهم عرفـوا وجوده، فبطل هذا.

وليس فيها سؤال عن الحـال: كيف هو، ولا سؤال عن العلة: لم كذا وكذا، ولو كان سؤالهم عن هذين لما قنعوا بقوله:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾

ولشغبـوا وترددوا، وهذا إذ ذاك شغلهم وعادتهم وإرادتهم[1]، فثبت أن السـؤال إنما كان عن الشئ: من أين هو، بدليل الجـواب والبيـان الظاهر الشافى بقوله:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾

إذ الرسول عالم بما سـألوا عنه، فأجاب عن الله بذلك، كـما تقول: **آدم نسألك عنه، وفـهم المسئول السؤال فقـال: آدم من تراب، فإذا رضى الجـواب قنع، وليس يرجع العـدو، إلا بفهم عظـيم، من الحق العظيم،**

(١) كانوا جدلين، خصمين، وكان المراء دينهم وشيمتهم وكان من شأنهم الشغب والتردى فيه.

الذى لا مرد له؛ فكيف يزعم الزاعم أنه عليه الصلاة والسلام لا يعرف، ولا يجوز أن يعرف؟

فقد أوجب الله علينا معرفته تعالى -ولا مثل له-، ولو ضيعناها لكنا كفارا، أوعصاة، فكيف بموجود مخلوق أمثاله كثيرة.. هذا عين الجهل أن يقال:

لا يجوز أن يعرف من له المثل والنظير وهو الروح، ويوجب معرفة من لا شبيه له ولا نظير، فنعوذ بالله من جهل الجاهلين، وظلم الظالمين..

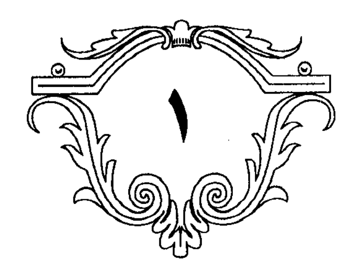
والذى أقول به: إن لله أسرارا، لا يسع فيها الرسم، ولا يليق بها الكتم، لا ترسم فى الدواوين لعمى البصائر، وضعفاء النجائر، ولا يليق بها الكتم لوضوحها وشدة ظهورها، فلا تعبأن بهم مع كثرة حججهم، ولذ بالحق، واخضع له فيما هم فيه يضطربون، وأعرض عنهم فيما لا علم لهم به، فهم يعمهون.

وقد أمر الله سبحانه نبينا محمدا ﷺ بالاقتداء بإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام، وهو الفاضل الذى لا يصل إليه أحد.

وكأنه يقول: قد شاركتهم فى النبوة والرسالة والهداية والأمور الطارئة على النفوس والأبدان، والقلوب والأرواح، فاقتد بهم فيما فيه الشركة، وما خصصناك به ففينا وإلينا، كذلك أيضا من فهم هذا السر، دان لله مع عامة المؤمنين، ومع أوساطهم ومع الأعلين. وفارقهم فيما هو خاص للمخصوصين.

فإن تكن منهم فازدد بعلمك وعملك فقراً إلى الله، وتواضعا لعباده، واعطف بالرحمة على عامة المؤمنين؛ وإن كانوا ظالمين.. إلا حيث أمرك الله بالغلظة عليهم مع الدعاء الصالح والدفع عنهم» أهـ.

عبد الحليم محمود



لقد ترددت كثيرا قبل أن أكتب هذه القصة. فما كنت لأجهل أنها ستقع موقع الدهشة من هؤلاء الذين اصطفيتهم لمودتى، وأنها، فوق ذلك، لا ترضى طائفة منهم. أجل، وما كنت لأجهل أن ستكون هذه القصة مثارا للشك فى سلامة نيتى عند قوم، وفى سلامة عقلى عند آخرين.

وفى الحق انى -أنا نفسى- لو لم أكن شاهدت الحوادث التى سأقص عليك نبأها، والتى كان موقفى منها موقف الناقد، الفاحص، الشاك -لفكرت كما فكر القوم، ولحكمت بما حكموا به. لقد كنت شاعرا شعورا واضحا بأن القصة عليها طابع الإغراق فى البعد عن الحقيقة والمنطق، لذلك كتمتها، ولم أنبس عنها ببنت شفة، حتى لدى أخص أصدقائى. وإذا كنت اليوم قد عزمت أن أذيعها، فذلك أنى لم أحكم لنفسى بأن لها حقا يبيح لها أن يكون موتى سببا فى فناء الشاهد الواحد الذى يشهد بحصول هذا الحلم الغريب. أما وقد شرعت فى تنفيذها ما اعتزمت، فإنى أطلب إلى هؤلاء الذين اتصلوا بى اتصال معرفة وخبرة أن يتذكروا -قبيل أن يطرحوا نظرية (جيمس) ظهريا- ما كنت عليه فى نفسى من حيطة، وفى آرائى وأفكارى من تشدد. حقا إننى لست بدعا من الرجال، فقد أتى على- كما أتى على كل رجل ساعات ضعف، وساورتنى -كما ساورته- نزعات من عواطف. لكننى حاولت ألا أدع من ذلك شيئا يؤثر فى أحكامى، وحاولت ألا أنظر إلى رغباتى بعين من

يرى رغباته حقائق لا يتطرق إليـها الشك سواء أكان نظرى فى العلم، أم فيما وراء الطبـيعة، أم فى السياسة، بل كان هذا شـأنى حتى فى حياتى العـاطفـية. وإذا كـنت لم أنجح كل النجـاح فى خطتى فـلا أقل من أن تساعدنـى هذه العناية بالمبالغة فى الحيطة والحـذر على اكتساب الـثقة فى الساعة التى أنا فيها شديد الحاجة إليها.

ومع ذلك، فهذه الظواهر التى أصفها، وإن كـانت حقا مدهشة، فإنها من نوع ليس من المتـعذر القـيام بتجـربته لمن أراد، بل إن بـعض تجارب بسـيطة، من النوع الذى يسهـل أن يقوم به أى فـيزيقى أو بيـولوجى أو طبيب، يكفى لأن يظهر لك أن نظرية جيـمس -حتى إذا افترض أنها لا تتمـشى مع المنطق- مؤسسـة على ملاحظات واقعـيه. فلم لم أتابع -أنا نفسى، هذه التجارب؟.

ولم لم آنشرها على الملآ عقب موته؟

لست أدرى!

وليس من السهل أن أعلل ذلك لنفسى!

وكل ما يمكننى أن أقوله، هو أن الخجل ربما يكون قد غلبنى فاضطرنى إلى هذا الامتناع.

يضاف إلى ذلك مـاعندى من نفـور طبيـعى من الاشـتـغال بـبـعض موضوعات بعينها. لقد وجهتنى الظروف وجهة أدبية، فأصبحت كاتبا لا عالما، لذلـك لم يكن لدى -كالعلمـاء- مستـشفى أو مـعمل، لى فـيه مـتصـرف. وترددت فى أن أتصل بقـوم من العلمـاء لأوجه انـتبـاههم لظواهر، أعلم أنهـا لا تنسـجم مع أسلوب تفكيـرهم إذ كنت أعلم أنهم يعتبروننى غريبا عما يعنون به من البحث، وإذا كنت آسف لضعفى الذى دفعنى إلى التـردد، فما أشد سـعادتى إذا أثار نشر هذه المذكرات، رغـبة

بعض المخاطرين فى متابعة أثر صديقى البائس، فى السعى للكشف عن عالم جديد.

عرفت الدكتور جيمس فى أثناء الحرب، وكانت مقابلتنا أول مرة فى حقول الفلندر التى تعلوها الأوحال. فقد رأيته بين طائفة من الإنجليز، امتلأت نفوسهم فرحا، وبانت فى وجوههم علائم الصحة، لكن جيمس من بينهم قد لفت نظرى إليه بخديه البارزين المعروقين ووجهه الذى تظهر فيه آثار موجات الألم، وكان قد جاء حديثا إلى الفرقة التى كنت أقوم فيها بمهمة ضابط الاتصال الفرنسى ليكون طبيبا لها، فما لبثنا أن ارتبطنا بأسباب المودة. وقد احتفظت له، على ما كان يسود الزمان والمكان إذ ذاك من فزع، بذكريات تكاد تكون سارة، ذكريات للشهور التى قضيتها معه فى نتوء أيبر، إذ كنا نقيم معا فى خيمة واحدة، خيمة ننام فيها على أسرة الجيش، وكان بين سريرينا صندوق بسكويت نستعمله مائدة، ومكتبة، حتى إذا ما أقبل الليل، وأرقنا صفير القذائف التى تمشى فوق رءوسنا متجهة صوب بوبيرنج، واضطراب جوانب الخيمة المبتلة، كلما خفق الهواء كنا نأخذ فى الحديث بصوت خافت نتذاكر أخبار الشعراء والمجانين..

كنت أحب زميلى، فإنه -رغم مظهره الذى يدل على عدم المبالاة بشئ- كان يخفى قلبا رقيقا، وشعورا حيا. وكان شديد الانطواء على نفسه، فلا يتحدث عن خصوصياته، حتى أنى على طول ما عاشرته، وشدة ماخالطته لم أعرف من حديثه أكان له زوجة وأطفال أم لم يكن. وما أن أعلنت الهدنة حتى افترقنا فجأة، كما افترق كثيرون غيرنا، وقد قامت الكتب -طوال العام التالى للهدنة- مقام اللقاء، وعرفت عن هذا الطريق أن جيمس يعمل بمستشفى بلندن، ثم أهمل أحدنا (ولست أدرى الآن أينا) الإجابة على خطاب الآخر، وانقطعت الرسائل، فأصبح

جيمس -بمر الزمن- صورة مختلطة بذكرياتى، لكنها لا تعدو أن تكون خيالية كأنها شخصية بطل من أبطال القصص. وأخيرا لم يعد يخطر لى حتى.. فى الحلم، واستمر ذلك إلى ربيع سنة ١٩٢٣ ففى هذا العام اضطرنى البحث فى المتحف البريطانى إلى الإقامة بلندن مدة طويلة. وقد طال بى العمل، فشعرت بالتعب، والوحدة، والضيق. وفى ذات صباح، وقد أشرقت الشمس زاهية وضاءة، لم أجد من نفسى شجاعة على العمل بالمتحف، فنظرت فترة من الزمن إلى الحمام، وقد كان يشبه حمام سان مارك. وهو آلف نافر فى أروقة المتحف المقامة على النسق اليونانى، واسترسلت فى الأحلام، وشعرت بأن الوحدة، وإن كانت لمدة قصيرة، بين الفينة والفينة، ضرورية للصحة فإنها تصبح إذا طالت مدتها، ثقيلة على النفس لا يطاق احتمالها، لم استكن أو استسلم إلى الوحدة مع أن لى أصدقاء من الانجليز؟ ألا يحسن أن أقضى وقت المساء مع إنسان ذكى كالدكتور جيمس؟ لقد أنسيت عنوانه. ومع ذلك فليس من المتعذر معرفة عنوان طبيب، فدخلت قاعة المطالعة الكبرى وهناك بحثت فى الدليل السنوى لأسماء وعناوين الأطباء فوجدت أن: هـ. ب. جيمس طبيب مقيم بمستشفى سان برنابيه. فعزمت، ألا اشتغل فى هذا الصباح المشمس، وأن أذهب للبحث عن صديقى.

كان مستشفى سان برنابيه مقاما على شاطئ التاميز الأيمن، فى الحى الشعبى، الذى يمتد إلى ما بعد بلاك فرياس بريدج، وكنت كلما عبرت النهر عند هذا المكان ثار فى نفسى شعور غريب قوى، ففيه يفصل نهر التاميز بين عالمين، وفيه يترك الإنسان وراءه لندن المطبوعة بطابع العصور الوسطى وعصر النهضة فى فنها وعمارتها، لندن ذات المنتزهات التى تشبه رقع الشطرنج والأرصفة المزدانة بالأشجار أمام الفنادق الكبيرة، والنهر يصبغه ما ينعكس عليه من حمرة ا لعربات -ليستقبل مدينة كلها

مصانع، ومـخازن وحيطان عارية عن الفن، ومـداخن مربعة. وفى ذلك الصباح ظهرت شدة التعارض بين الجانبين، عند عبور الجسر، بسبب غيم حجب الشـمس فجأة. وفى هذا الضـوء العاصـفى الخافت وصلت إلى الشاطئ المغطى بالأوحـال حيث يحمل الرجـال أكياسـاً من الجبس على سفن راسـية كـأنها مهـملة. أما الشـارع الكبيـر المقابل للجسـر فكانت العربات الكهربائية والبخارية فيه، تسير فى جلبة وضوضاء وعلى رصيفه سوق مـتواضعة تـسمع لها دويا خـافتا. هذه المظاهر المتـباينة توحى إلى الإنسان أنه انتقل إلى أرض شعب آخر.

أرشدنى أحد رجال الشرطة إلى طريق مستشفى القديس برنابيه، وكان المستشفى، على شاطئ ا لنهر، يبدو كـالملجأ، بين منازل حقيرة ومخازن لا يتخلل حيطانها نوافذ. أما مـبنى هذا المستشفى فإنه لا يمتاز عن أغلب مبانى لندن فى كونه يشبه -فى نقشه- هذه المبانى ذات النقش الرومنتيكى حيـث ترى خطوطا بيضـاء طويلة توضح سواد الظـلال، وقد انـتشرت البقعـه الصغيرة ذات الشكل المزدهر البـراق، فكانت تبعث فيه شـيئاً من الحيـاة، فمن خضـرة العشب، إلى زرقة ثوب تخطر فـيه مرصـعة، إلى حمرة ثيـاب ثلاثة أشخاص فى دور النقـاهة يخطون أولى الخطوات بعد مـلازمة طويلة للفـراش. وفى أعلى مـدخل المستـشفى ترى قطعـة من القماش قد علقت وكتب عليها:

«إن مستشـفى القديس برنابيه يستمد حيـاته من الهدايا، والصدقات، وأنه يعوزه الآن ثلاثون ألف جنيه».

فدخلت المستشفى وسألت البواب عن الدكتور هـ. ب. جيمس.

-الكدتور جميس؟.. ربما تجده فى هذه الساعة فى دار الأطباء المقيمين بالمستشفى.. اعبر الطريق تحت القوس التذكارى، ثم اتجه شمالاً.

ولما سرت حسب إرشاده، وجدت بيتا منفردا، بنى أيضا بالمستشفى بالحجر الأبيض الذى اسود لونه من أثر الدخان، ولكنه مغطى بالكروم البرية واللبلاب. وفى أسفل السلم لوح كتب عليه أسماء الأطباء، كل اسم منها متبوع بكلمة «موجود» أو «غائب» وعلى رأس القائمة قرأت: الدكتور جيمس. الطابق الأول غرفة نمرة ٢١. داخلى. فصعدت ومالبثت أن وجدت اسم صديقى مكتوبا على لوحة صغيرة من الخشب معلقة على الباب، ففاجأنى إحساس بقلق، وساورنى شئ من التردد. أيسر جيمس برؤيتى بعد هذا النسيان الطويل؟ أم سأشعر -بعد التحية والاستقبال- بالوحدة بين هذا الركام القاتم من المداخن والأكواخ؟. وأخيرا قرعت الباب، ووضعت يدى فى حركة لا شعورية على قبضته فلم تدر، إذ كان الباب مغلقا من داخل القاعة، وسمعت صوتا له صرير يشبه ماتثيره الريح من صوت عند مرورها بالحديد الصدئ، سمعت ذلك الصوت الذى أعرفه تماما، يقول فى نغمة تبدو كأنها خانقة:

انتظر قليلا من فضلك.

ساد السكون.. فسمعت خطى تسرع، وصوت حلقات تنزلق آثاره سحب ستار بسرعة، وصرخة تشبه صرخة حيوان صغير قد لدغ، أو صدم بدون تعمد، ثم رنين زجاج اصطدم بعضه ببعض. ثم صوت الماء وهو يسيل فى الحوض على مهل فيضجر السامع. أمام هذا الباب وقفت انتظر! انتظر وقد استولى على إحساس مبهم بعدم الرضى. ليت شعرى ماذا يصنع جيمس!

أيمكن أن أكون قطعت عليه الاستمرار فى عملية جراحية يقوم بها أم شغلته عن تضميد. أم قطعت عليه اختبارا؟. لا أعتقد ذلك فجيمس ليس بجراح. ولم تجر العادة بأن يأتى الطبيب بمريض إلى حجرته.

أيجوز أن يكون من عادته ألا يبكر فى الهبوب من نومه بعد تأدية عمله فى أثناء الليل؟ إذاً هل أكون قد أيقظته؟. وأخيرا لم أعد أسمع صوت سيلان الماء، وسمعت وقع أقدام تتجه نحوى، ودارت قبضة الباب فى يدى، ورأيت رأس الدكتور بعد أن فتح الباب قليلا فإذا به قد أصبح أشد نحافة مما عهدته عليه فى أثناء الحرب، وألفيت عينيه الغائرتين يجول فيهما لمعان حائر يبدو كأنه يلوح من تحت غطاء، ومما أدهشنى، وبعث فى نفسى الألم، أنى رأيت عينيه تعبران عن نوع من القسوة لم أعرفه فيه من قبل. لقد تردد قبل أن يختار من بين ذكرياته صورة تنطبق على هذا الزائر الذى لم يكن قدومه فى الحسبان، ثم ابتسم، وفتح الباب على مصراعيه. فرأيته مرتديا رداء أبيض ورحب بى قائلا:

ماذا عساك تفعل فى انجلترا؟ ما كنت أتخيل قط أن أراك اليوم أيها الصديق. كانت الحجرة خفيفة الأثاث، كان أثاثها مؤلفا من سرير يشبه أسرة الجند، وكرسيين عاديين، وكرسى كبير مكسو بالجلد، ورفوف بعضها فوق بعض صف على قسم منها كتب، وأخفى القسم الآخر ستار من القماش الأخضر لاشك فى أنها -هى بعينها الستار التى سمعت حلقاتها تنزلق منذ هنيهة، وكان فى أحد أركان الغرفة حوض مملوء بالماء الممزوج بالصابون، وعلى المدفأة عدة صور لسيدة فى سن الشباب، ومالبث جيمس حتى قدم إلى الكرسى الكبير، وعلبه من سجاير. لكنه أخذ ينظر حوله قلقا مضطربا حتى لقد تصورت احتمال وجود شخص ثالث بالحجرة، ثم رأيته يجاهد نفسه على أن يظهر أنه يحدثنى فى ألفة، ويحملها على ذلك حملا، فبدت عليه هيئة شخص فوجئ أثناء قيامه بأمر مريب، فتكلف السهولة فى الكلام وقال:

يالك من صديق! لقد أهملتنى كلية منذ أن صرت مؤرخا... ومع أنك لم ترسل لى بكتابك الأخير فإنى قد قرأته.. إنه لكتاب قيم.. وما

كنت لأعتقد أن فى إمكانك أن تصنف مثله. . لكن دعنا من حديث الكتب وحدثنى عما تصنع.

لقد وصلت إلى مكانه وأنا مغتبط بأنى سأجدد رؤية لشخص أحببته كثيرا وأسعدنى ببعض الآراء والأفكار التى أقدرها، وأنعم بها، ومع ذلك فإننى منذ جلست إليه، فى حجرته، وأنا أشعر بضيق ينغص كل لذة برؤيته وأدركت أن ليس بينى وبين جيمس اتصال، ولا شئ يقال. لقد تعارفنا على أننا أعضاء فى جماعة وقد انتهى أمرها منذ زمن بعيد، فلم يبق شئ مما كان بيننا سنة ١٩١٨، من الصلة الروحية، نعم لقد زال ما كان يربطنا من الشعور بشدة القلق لجهلنا بنتيجة الحرب وزال ما كنا نجمع عليه من ازدرائنا للأكاذيب الحربية. وانتهت دواعى عاطفتنا المشتركة نحو أصدقائنا الجرحى. كل هذه النواحى، التى كانت تشركنا فى حالة واحدة، زالت كما زالت الخلايا السطحية التى كانت تكون -إذ ذاك- مظهرنا الجسمى. وها هو ذا الشخص الذى يسكن فى هذه الغرفة، والذى يسمى جيمس، قد أصبح بالنسبة لى غريبا كأى شخص لقيته عرضا، فى بيكادللى. وخيل إلى أن السبيل الوحيد لبعث ما فى نفسه من مناح عميقة ثابتة هو أن أعترف له بخيبة الأمل فى هذا اللقاء. فقلت له:

إننى الآن أشعر بشعور غريب! أتذكر ليلة من ليالى أيبر شرحت لى فيها، انقسام الشخصية عند المجانين؟

اننى أشعر الآن بشعور مماثل. . لقد حضرت عندك لأبحث عن شئ لم يعد له وجود، وها أنا ذا أتمنى عبثا، فترة الجنون التى تسمح لى أن أكون مسرورا برؤيتك. . إن جملة كهذه كانت تكفى لأن تبعث جيمس، الذى عرفته سابقا، للأخذ فى محاضرة علمية مرحة، لكنه هز كتفيه فى إعياء وملل، وأشعل سيجارة، وترك جسمه يهبط على أحد الكراسى،

ثم نظر حوله مرة أخرى فى قلق واضطراب. وتنهد قائلا:

آه.. لقد انقطعت منذ زمن طويل عن الاهتمام بانقسام الشخصيات وغيرها إنى أعالج الآن المرضى بالسرطان وبالقلب، وبالرئة.. ومرفأ لندن يبعث لى أحيانا بعض البحارة من مواطنيك...

فى هذه الآونة سمعت، من وراء الستار، صوتا لا ينساه قط كل من سمعه، وهو الصوت الحاد السريع الذى تحدثه الفيران بأظافرها الصلبة عند عدوها. فتخيلت فجأة مخبأ فى خندق من خنادق السكك الحديدية كنت أشارك فيه جيمس فقلت له مسرورا:

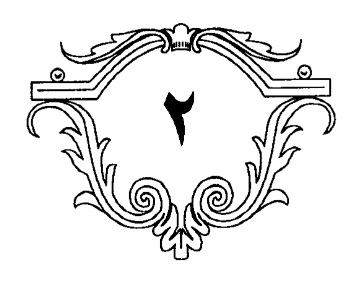
ماذا.. أعندكم فيران؟ إن ذلك يذكرنا بكثير من ماضينا المشترك. فقام وهو يلوح عليه شئ من العبوس قائلا:

فيران؟ أتظن وجود فيران فى مستشفى؟.. إنك واهم ياصاح.. إنى آسف لعدم إمكاننا البقاء هنا، لنذهب إذن، فقد حانت الساعة التى آمر فيها بمرضاى.. أتريد أن ترافقنى؟ ربما شاقك هذا.

ولكنى كنت إذ ذاك قد بلغ بى ضيق الصدر الغاية فقلت: أواثق أنت من أن وجودى لا يسبب لك اضطرابا؟ إن من السهل أن أعود فى فترة أخرى.

فأجاب فى صوت سمح متهكم معا: كلا.. كلا.. إنك لا تسبب لى اضطرابا الآن..

ثم توجه مسرعا نحو الحوض واغترف منه غرفة من الماء الممزوج بالصابون فمسح به بقعة حمراء كانت على حافته.



إذا كانت المستشفيات تبدو فى مظهر قاتم يقبض، فإن مستشفى القديس برنابيه من أقلها ظهورا فى مثل هذا المظهر. فأرضه مرصوفة بالبلاط الأبيض والأسود، وأسرته الحمراء مغطاة فى نظام، ونوافذه محلاة بالأزهار. وإذا ما سرحت الطرف، يمينا أو شمالا

رأيت الممرضات فى أثوابهن الزرقاء ويكدن يكن جميعا ممن امتزن بالجمال والوداعة، فهن فى دائرة المرضى والبؤس هذه يظهران كالواحات الناضرة تبعث الأمل، وتحيي الرجاء، وتنعش الأنفس. وكل إيوان له رئيسة، وهى ممرضة تمتاز بزنار أزرق قاتم. ولما دخلنا الإيوان سأل جيمس الرئيسة:

أليس من جديد؟ فأجابت: هل لك يادكتور فى رؤية المريض رقم ٢١٦.. ان الحالة لا تزال على ما هى عليه من الشدة. فاقترب من سريره ونظر فى المذكرة التى تسجل فيها حالته المرضية وأخذ يجهد نفسه ليتذكر أحوال تسلسل المرضى، ثم أشار بتغيير العلاج فى نغمة عليها طابع الحزن والتعب. أما فى أواوين النساء فقد دهشت لما أظهره من عدم المبالاة، وقد كنت على العكس منه، يبعث فى نفسى دائما منظر المرأة المريضة (وعلى الأخص إذا كانت فتاة ظريفة) شفقة حارة لعل لها صلة بالناحية الجنسية. حقا إن الطبيب حينما يدخل هذه الآواوين لا يجد ما يجده الغريب مثلى من شعور فيه لذة، وفيه ألم، حين يقع بصره على

خصوصيات المريضات، ورقتهن الحنون، ومع ذلك فقد أدهشنى من صديقى أنه لا يشعر بدلال المحتضرات. وبينما نسير إذا بفتاة اشتد شحوبها، يغطيها شعر طويل مرسل، تحاول أن تبتسم إلينا، ثم مالبثت أن سقطت على سريرها من الإعياء.

فقلت لجيمس: مسكينة تلك الفتاة!

فأجاب: أيهن؟ آه رقم ٣٢٨.. تلك قد حان حينها. أما فى الرجال فقد جلس كثير من المرضى جماعات، تحلقت حول الأسرة، أو المناضد التى علتها أصص الأزهار. قد كان يومئذ الإضراب قائما على ساق بين العمال فى الميناء، فكان كثير من المرضى -وليس بهم غير جروح خفيفة- يتجادلون فى السياسة والدين فى لهجة جديدة تسبه لهجة الوعاظ فى هايد بارك. وبينما نسير رأيت عينى جيمس تسيلان رقة إذ وقع بصره على فتى حسن الوجه فى الخامسة عشرة من عمره، ثم خطبه قائلا:

آه.. سونى؟.. ألم يعد ينتابك الدوار؟ ستخرج من المستشفى غدا.. ثم نظر إلى الممرضة وسألها: أليس من جديد؟ -لا أعتقد أن الـ٤١٣ يستمر على قيد الحياة إلى الليلة القادمة إذ لم يعد يستطيع أن يفتح عينيه.

فذهب جيمس نحو سرير فى ركن من أركان الإيوان حيث يرقد رجل عجوز انخسف خداه المعروفان وجانبا أنفه، حتى لتخال تلك المواضع قد غارت فى جسمه، كان تنفسه سريعا، وقد طالت لحيته الشقراء التى خطها الشيب إذ كان آخر عهدها بالحلق يرجع إلى أيام عدة. فجس جيمس نبضه فلم يشعر المريض ولم يأت بحركة فالتفت جيمس إلى الممرضة، وقد دب فيه نشاط فجائى وقال: إنك على حق.. لقد أوشك أن يفارق الحياة.. وسأنبئ جريجورى بذلك فلا تهتمى له.. ومع ذا

فسأحضر لرؤيتـــه فى أثناء النهـار. . أعـطيـه قليـلا مـن الزيت المزوج بالكافور. . فبذلك تمتد حياته إلى المساء.

دهشت لهذا الأمر الذى جد على صديقى، فقـد تغير حاله من خمود إلى اهتمام، ومن اكتراث إلى نشاط. وبش فى وجهى قائلا:

ينبـغى أن أذهب إلى الـ Past Mortem clerk فرافـقنى، فإن ذلك مما تحلو لك رؤيته.

فقلت له: ذا الـ Past Mortem clerk

أنسـيت اللاتينـى؟. . ألا تعلم ان الـ Past Mortem clerk يدل دلالة لفظية على المساعدة المكلف بحفظ الجثة بعد الموت للتشريح. . ومساعدنا هنا شخص قصير غريب يسمى جريجورى.

نزلنا ثلاثة سلالم. ثم دفع جيمس بابا ثقيلا به كثير من قضبان الحديد لإحكام غلقه، ودخلنا مدرجـا به نحو عشرين مجلسـا، وكانت حيطانه البيضاء ذات جدران مطلية بطلاء لامع صقيل، وقد صف فى وسطه أربع مناضد للتشريح. أمـا هواء المكان فقد كان مفعما برائحـة كريهة لحامض خاص بالتحنيط. وبينما نحن كذلك إذا بشخص قـصير يظهر فجأة كأنما هو شيطان قد نجم وسط المدرج، فأخذتنى الرعدة، وكرهت منظر الرجل منذ النظرة الأولـى. ومع ذلك فـقد كـان مظهـره عـاديا. أمـا شـارباه فمـدهونان مفـتولان يتـجه طرفـاهما نحـو منظاره الذهبى، وكنت حين حدثنى جيمس عن هذا المكلف بحـفظ الجثث قد تخيلت -ولست أدرى لماذا- جلادا على نسق ما تصف الروايات. ارتبـاط هذه الصورة -صورة جريجورى- العامية، الـتجارية، مع فكرة الموت بعث فى نفسى النفور. وقال الدكتور:

نهـارك سعـيـد ياجريـجورى هذا أحـد أصـدقائى الفـرنسـيين يزور المستشـفى. . لقد حضرت لأخبـرك بأنه سيكون عندنا هنا، بدون شك، هذه الليلة المريض رقم ٤١٣.

فأجابه الرجل القصير:

-حـسن يا دكتـور. سأعـود هذا المساء. . كل شئ على مـا تروم. . الساعة العاشرة تقصد؟

قال جيمس:

-أجل. ومن الخـيـر، اذا أمكنك، أن تبـكر عن هذا الموعـد قليـلا. فهـمس جريجورى قائلا: بهـذه المناسبة - أتذكـر أنك مدين لى بالاثنين الآخرين؟

فنظر جيمس حوله قلقا مضطربا نظرته التى أدهشتنى إذ رأيتها أول مرة حـيث كنا بحـجـرته، ثم سحب مـن حافظة نقـوده ورقـتين أعطاهمـا لجريجورى، فأخذهما الرجـل، وبينما كانت يده تطويانهما فى بطء نظر إلى قائلا:

ربما يريد السيد الفرنسى رؤية مدى استعدادنا ونظامنا؟

فهـمهمت بـجملة غيـر واضحة. ذلك أن هواء المدرج بـدأ يشيع فى الشعور بأنى مقبل على مرض، وخشيت أنى أقع مغشيا على بدون سبب واضح، واستمر الرجل القصيـر فى حديثه، وقد ظهر بمظهر الراضى عن نفسه، وجعل يقول:

نحن هنا على استعداد أبدا لتلقى الجثث حتى ولو بلغت عدتها الثمانية فى كل يوم. وعلى كل حال فاسـتعدادنا فيه الكفـاية دائماً إلا فى فصل الصيف حيث يكثر موت الأطفـال فيضيق بهم المكان. . ومع ذلك فإننى يا سيدى أستطيع بحسن ترتيبى ألا أضيق بهم ذرعا حتى فى أشد أوقات

الصيف حرا. . أليس كذلك يا دكتور؟ بل لقد تمكنت من وضع أربع جثث على مائدة واحدة. . أجعل ساقى الواحدة موازيا لرأس الأخرى. . إنى أؤكد لك أنه عمل مرهق. . كلا، كلا، لا تخرج من تلك الجهة يا سيدى. إنك لم تر بعد أجمل ما عندنا.

ثم توجه نحو الباب الحديدى المثبت بالحديد اللامع. وكان على هذا الباب بطاقة كتب عليها «الأستاذ سيمبسون يريد قلوبا سليمة، يجب أن تراعى العناية التامة».

ثم فتح الباب رويداً وكان له صرير، فشعرت عند فتحه ببرد قارس مميت. وأحسبت أن وجهى حينئذ بدا شاحبا: ذلك لأن جيمس أخذ بذراعى وجعل يمد عينيه إلى وجهى. ثم نزلنا بضع درجات فإذا بنا فى كهف حيطانه من آجر. وفى وسط هذه الحجرة الباردة توجد آله من حديد تشبه تنور الخباز، أو مرجلا ضخما، وإذا أردت الدقة، فإنها تشبه القالب الذى تصب فيه الحلوى إذا كبر حجمه أضعافا مضاعفة. فإن قضبانا طويلة من الحديد كانت تخرج من تلك الآلة. فنظر إلى جريجورى وغمز بعينه كأنه موشك أن يقدم لى أبدع هدية فى العالم. ثم فتح بابين فى خفة وسرعة تدهش، وسحب أحد القضبان، فكدت أصيح: ذلك أنه جذب لوحا طويلا ودفع به حتى صار بيننا. وكان عليه امرأة عارية.

لقد كانت تلك المتوفاة جميلة حقا! وإن أنس لا أنسى ما حييت الجسم الناصع البياض نصوعا لم نعتد رؤية مثله تعلوه نقطتان ورديتان شاحبتان، هما حلمتا الثديين. وكانت عيناها مطبقتى الأجفان، وعلى فمها الساحر ابتسامة حزينة مترفعة. يا للعجب! أيصدق الإنسان أن سيدة مثل هذه تموت فى مثل هذه المستشفى! كم كان يود الإنسان أن يعرفها، وأن يخفف عنها، وأن يعينها. .؟!

كان جيمس وجريجورى قد وقفا جامدين يمدان بصرهما إلى.

ثم قال جريجورى: أتعرفها يا دكتور؟ إنها الفتاة الروسية.. ونحن ننتظر أن تطلبها أسرتها.. ومالبث جرجورى أن رفع القضيب بحركة عنيفة ملقيا اللوح والجثة فى الآلة الحديدية السوداء. ثم قال فخورا: يمكننا أن نحتفظ بتلك الجثث هنا فى البرد إلى الأبد.. أتريد أن ترى رجلا؟

-كلا.. أشكرك. أريد أن أخرج. أخذ جيمس بذراعى فى مودة ورفق قائلا:

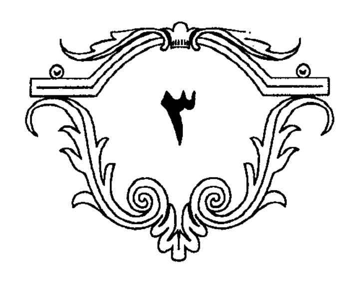
سأقودك إلى حجرتى حيث أعطيك كوبا من البورتو إن لونك جد شاحب.. نحن إذن يا جريجورى على اتفاق فيما يتعلق بهذا المساء؟ فى تلك اللحظة سمع فى المدرج صوت جرس يدق: تن، تن.. تن، تن، تن، تن، فقال جريجورى:

اثنان ثم أربعة هذه الدقة نداء لك يا دكتور. فقال لى جيمس: معذرة سأتركك لحظة.. كل طبيب منا له نمط خاص من الدق فإذا دق الجرس مرتين. ثم أربع فذلك نداء لى.. وفى كل إيوان، بل وفى كل حجرة، جرس مثل هذا.. يكفينى الآن أن اسأل -بواسطة التليفون- المركز، لأعرف أين يحتاجون إلى.. أيمكنك أن تنتظرنى هنا؟

إنى أفضل أن أراك فى مكان آخر.. اتريد أن تتناول العشاء معى هذا المساء؟ أنى أنزل فى فندق صغير فى وسط لندن. فأجاب فى صوت خافت كأنه يحلم:

هذا المساء.. هذا المساء.. نعم، ليس ذلك من المستحيل.. سأطلب إلى أحد زملائى أن يشغل مكانى. إنى أرغب أيضا أن أتحدث معك.. غير أنه يجب -كما تعلم- أن أكون هنا الساعة العاشرة، فإذا أردت تناول العشاء مبكرا، حوالى الساعة السابعة مثلا، فلا مانع عندى.

سأنتظرك.. فى فندق جونسن.. ودق الجرس ثانية مرتين ثم أربعا.



لو أتيح لك أن ترى صاحب فندق جونسن لرأيت شخصا يفتخر بأنه لم يصطنع وسائل التدفئة الحديثة، بل ولا الإضاءة بالكهرباء، ولرأيته، بدلا من ذلك -أقام موقد كبيرا فى فناء الفندق، وزين حجرة الطعام بالمسارح الفضية التى تتلألأ بها.

أما خدم الفندق فإنهم يمتازون بالهدوء، وباحترامهم للمسافرين، ثم إنهم، على نقيض كثير من خدم الفنادق، لا يميزون المسافر برقم حجرته، وإنما المسافر بالنسبة إليهم إنسان له شخصيته وله مميزاته. فى هذا الفندق حجرة صغيرة خاصة معدة للطعام، كنت أحب منظر ألواحها التى تزين الجدران، فهى مصنوعة من خشب البلوط الناصع، وقد طلبت من كبير الطهاة أن يقدم لى فيها العشاء، ولما دخلتها حوالى الساعة السابعة مساء غمرتنى موجة من الشعور بالألفة حتى لكأننى فى حجرتى الخاصة، وكان فى وسط هذه الغرفة منضدة من خشب الطابلى عليها أزهار النسرين يتخللها ضوء الشموع الوديع، وبينما أنا أنعم ببساطة هذا المكان وهدوئه إذ وصل جيمس فرأيت أنه هو أيضا قد شعر بما شعرت به من سحر البساطة الظاهرة فى كل ما تتحلى به حجرة طعامنا، ولقد عبر عن هذا الشعور وهو واقف أمام الموقد مادا يده للتدفئة قائلا: حقا إن الفرنسى وحده هو الذى يمكنه أن يكتشف -وسط لندن- الأمكنة التى تحمل الطابع الإنجليزى القديم، إنك جد موفق يا صديقى فى اختيار المكان، فقد كنت فى أمس الحاجة إلى الراحة.. ليست مهمتى اختيار

المرضى الجدد، ولكن كثرة المرضى الهائلة يوم الاثنين تجعلنى أسعى لمساعدة زملائى كلما وجدت إلى ذلك سبيلا.

- ولم كان عدد المرضى كثيرا يوم الاثنين؟

- إنه ليسهل إدراك السر فى هذا... ذلك لأن جابى الإيجار فى أحيائنا الفقيرة يمر بها يوم الاثنين ليجبى إيجار الإسبوع، فتتخذ النساء الوسائل حتى لا تكون فى المنزل يوم حضوره، ومن التعلات المستساغة أن يذهبن بأطفالهن إلى المستشفى. يجب أن تجئ يوما لترى هذا، إنه مدهش. إن بعض النساء يتركن أطفالهن، ويذهبن إلى الحانة المقابلة يتجرعن الجعة، ويمكثن ثمة إلى أن ينتهى الاختبار الطبى. اتصدق أنهن يهملن صغارهن ويتركنهم على هذا الحال إلى أن نرسل فى البحث عنهن لتتعرف كل أم على طفلها، فيأتين لا يكدن يحملن رؤسهن من أثر السكر من الجعة؟. ذاك، ولم أبالغ، هو مايحدث يوم الاثنين، أضف إلى هذا حوادث يوم الأحد وما ينشأ عن المشاجرات، ثم ما اعتنى به يوميا من المرضى، كل ذلك يصور لك صورة تمثل ما يجب أن نتحمله يوم الأحد من مشاق.

- هيا بنا نتناول الطعام، سيدى الدكتور، وسنحاول أن ننسيك المستشفى، أتذكر نبيذ بورجونيا الذى كنا نشربه فى أميان، لقد طلبت لك منه.

أخذت الذكريات الحربية تشغلنا أثناء تناول الحساء وبعدها استولت على جميس نوبة من صمت عميق نوبة من ذلك النوع الذى كان ينتهى عادة -وذلك مما حببه إلى- بحديث مبتدع عليه طابع الغرابة. وفجأة قال:

– هناك سؤال لم أوجهه إليك قط حتى فى الفقرات التى كان بعد توجيهه فيها طبيعيا. . أتعتقد بخلود الروح؟

عند هذا السؤال المفاجئ اعترانى قليل من الدهشة غير أن نفسى اطمأنت، فقد وجدت صديقى القديم جيمس، ففكرت هنيهة ثم قلت: ياله من سؤال! إنك تعلم، أو بعبارة أدق، كنت تعلم موقفى فيما يتعلق بما وراء الطبيعة. يخيل إلى أنى ألمح من خلال هذا العالم أثرا لخطة محدودة، ولنظام معين، وإذا شئت، فإن هذا العالم لا يخلو من ظل عناية إلهية. .

غير أن هذه الخطة، التى يسير بحسبها العالم، ليست بواضحة على ما يبدو لى -أمام العقلية الإنسانية. ليس لدى إذا من المذاهب الفلسفية المتوارثة ما يساعدنى على إجابتك، وكل ما يمكننى أن أقوله فى إخلاص، هو أننى لم ألاحظ للآن أية علامة محسوسة تدل على خلود الروح بعد الموت، ولكن من التهور أن يؤكد الإنسان أن الروح تنتهى بانتهاء الجسم.

قال جيمس فى شئ من الضيق:

– إنك جد متحفظ يا صديقى فمن المستحيل ألا يظهر لك أن أحد الفرضين أرجح من الآخر. . . هل تسير فى حياتك كما لو كنت تعتقد بحياة أخرى أم لا؟

– إنى من غير ماشك أسير فى حياتى كما لو كنت لا أعتقد بيوم الحساب، لكن هذا لا يبرهن على أنى متأكد من عدم خلود الروح، وإنما يدل على أننى لا أعتقد بقوة إله خالق. . ولو تركت لى فسحة من الزمن أفكر فيها فإنى سأجد -على ما يظهر- الأدلة التى تعضد الفرض القائل بفناء الروح مع فناء الجسم، تفكير يكون بغير جسم؟ ألا ترى أن ذلك لا يمكن للإنسان إدراكه؟

إن تفكيرنا لا يخرج عن أن يكون نسيجا من الصور . . والمحسات . . وهذه المحسات تنقطع بانقطاع الحواس، ونشأة الصور تتوقف على وجود جهاز عصبى . . إنك تعلم أكثر منى أن إتلاف بعض خلايا المخ يحدث تغييرا فى الشخصية بل يصل إلى إزالتها . . ولقد أرشدتنى -أنت نفسك، إلى أن وجود البكتريا، أو الحقن ببعض الإفرازات الغددية، يغير تفكير الإنسان، كل ذلك يبين فى وضوح العلاقة بين الدعامة الجسمية التى يرتكز عليها التفكير، والتفكير نفسه. ثم أنسيت حالات الإغماء؟

أتذكر يا دكتور تلك الحادثة التى سقطت فيها تحت فرس فى إقليم الفلاندر، حيث وجدتنى أنت على العشب فى حالة إغماء؟ لقد مكثت هناك ساعتين، ولكننى لا أذكر شيئا مما مر بى فيهما . . ويظهر من هذا أن روحى لم تكن على قيد الحياة بعد أن صعق جسمى.

فقال الدكتور بصوت ساخر له صرير:

-إن ما تستدل به- فيما يبدو لى- ضعيف حقا إنك تفقد شخصيتك فى حالة الإغماء فترة من الزمن، وذلك ما لا أريد مخالفتك فيه (ومع ذلك فمجال الاختلاف فيه متسع، إذ إن كثيرا ممن تجرى عليهم العمليات، حينما يستيقظون من حالات الإغماء أوالتخدير بالبنج، يتذكرون بعض ما مربهم من صور غريبة، ويصفون فى بعض الأحوال شعورهم بروح طليقة) ولكن الزعم بأن شخصيتنا قد اندثرت ينقضه استيقاظك نفسه من الغيبوبة، فأنت حينما استيقظت، بعد سقوطك من فوق الحصان، لم تكن شخصا آخر ولكنك كنت الشخص الذى كان موجودا قبل أن يقع من فوق جواده. فإذا برهنت تلك الحادثة على شئ فإنما تبرهن على أن شخصيتك بقيت وإن يكن جسمك -فيما يبدو- قد تخلى عنها. ويمكننا أن نذهب مع الخيال إلى أبعد من هذا فى تلك المسألة. هب أن القلب وقف عن النبض، وأن الرئتين توقفتا عن

التنفس، ألا يقول الأطباء: إن المريض قد مات.. حسن.. لنفرض أن وسيلة اكتشفت -يستبعد هذا الاكتشاف- لإعادة الدورة الدموية إلى الرأس باستخدام دم جديد، ألا يبعث الميت من مرقده؟

-لست أدرى.. هذا ممكن..

- فإذا عاد إلى الحياة من جديد، فهل يعود بشخصيته القديمة نفسها، أو يتقمص شخصية أخرى؟

إنه يعود بشخصيته القديمة طبعا.

إنك تعبر عن رأيى.. ولكن من أين تأتى تلك الشخصية.. أترى أنها قد تكونت فجأة، فى هذا الجسم الذى ردت إليه الحياة، مع كل ما تشتمل عليه من ذكريات لا تحصى، ونزعات، وعواطف جامحة أو هادئة؟

إذا كان الأمر كذلك فأين ذهبت الروح التى كانت تحل فى هذا الجسم قبل أن تفارقه الحياة؟.. أما إذا كانت الروح التى عادت إلى الجسم مع عودة الحياة إليه هى نفسها التى كانت قائمة به قبل أن تفارقه الحياة،.. فإن هذا اعتراف لاليس فيه بأنها لم تكن قد فنيت بموت الجسم..

- لماذا يا دكتور؟.. ما دامت ذكرياتنا مرتبطة بتكوين خاص بالمخ، وما دام هذا التكوين لم يتغير، فإن الذكريات تعود متماثلة، ولكى أعطيك مثالا -وإن كان غير مهذب إلا أنه يوضح رأيى بعض التوضيح- أقول إن ما نحن بصدده يشبه قول القائل «إن الوزارة خالية من موظفيها ليلا، أليس كذلك؟ ومع ذلك فحينما يعود إليها موظفوها فى الصباح فإنهم سيستمرون فى القيام بنفس العمل. للوزارة إذن روح شخصية خفية لا تفارقها أثناء الليل..»

قال الدكتور وهو يسكب لنفسه بعض النبيذ:

إن ذلك سوفسطائية ماهرة. . غير أنها لا ترتكز على أساس متين إذ انك تفترض أن المخ يشتمل على أثر الصور والذكريات كما تشمل الوزارة على الملفات. فاسمع لى -أنا الطبيب- أن أقول: إنه ليس لدينا أى دليل على تكوين مثل هذا المخ. إن فكرة انطباع آثار الإدراكات والإحساسات فى الدماغ، وبقائها فيه، تتلاشى فى نظر الأخصائيين. وحتى على فرض صحتها، فإنها لا تبرهن على ما تقول. كلا، كلا يا سيدى، فكلما تعمقنا فى دراسة تكوين المخ كلما شعرنا أنه، كما يقول فيلسوفكم برجسون، جهاز اتصالات، أو مركز تليفونى، وبين الجسم وشئ آخر، ومن الطبيعى أنه إذا هدم المركز انقطعت الاتصالات، غير أن هذا لا يبرهن على عدم وجود المتحدث ولا على زواله بزوال الجهاز. .

- نعم، ولكنى فى حالة المركز التليفونى أو من بوجود المحدث لأنى أستطيع بوساطة تجربة غاية فى السهولة أن أجده، وذلك بالانتقال إليه سائرا أو ممتطيا جوادا، أو راكبا طائرة. فهل رأى أحد الروح؟ أتستطيع إعطائى أى مثال عن التفكير مجردا عن الجسم؟

- بالتأكيد. . . فالتفكير الذى جسَّمك مثال واضح لهذا.

ألا تعلم أنه لو لم توجد «قوة حيوية» أو «تفكير خالق» قبل تكون الجسم أو تكون خلية منه أو حتى قبل وجود أول نقطة ترى من البوتبلازم، فإن المادة ما كانت تنتظم قط، وتصير جسما تدب فيه الحياة. .؟ ومهما يكن من شئ فمن العجيب أن تكون أنت قد صغت جسما -وهوالذى أمامى- من الكربون والأكسوجين والفسفور وبعض المواد الأخرى. . وأعجب من هذا أنك تكون قد صغت من تلك المواد جسم إنسان لا جسم دب أو جمبرى. . . فأين المرتكز المادى لهذا التفكير الذى أوجدك؟ وأى مخ نقل إليك الأفكار الوراثية التى ميزتك، وخصصتك، وطبعتك بطابع معين؟

- هل أنت جاد فى حديثك يا دكتور؟ ألا تعتقد بكل بساطة أن هذا المرتكز المادى كان فى الخلية الملقحة التى منها خرج جسمى. . لست على معرفة عميقة بعلم الحياة ولكن. .

- إنك لتضحكنى بآرائك هذه، أعلمت قط يا بنى أنه من الممكن البرهنة علميا على أنه منذ خمسة وثلاثين عاما كان جسمك الحالى وروحك الموجودة مصورتين فى الخلية التى منها نشأت؟

لقد قلت لى منذ لحظة «إنى أومن بوجود المحدث لأنى أستطيع بوساطة تجربة بسيطة أن أجده. .» فأى تجربة قمت بها فيما نحن بصدده؟. . ماذا يبيح لك أن تتخيل أنه يكفى أن يكبر فقط منظر خلية حتى يصل إلى حجم هائل، لا تزال للآن ميكروسكوباتنا عاجزة عن إنتاجه، فنكتشف فيها أنف أسلافك أو تعصبا جديا للأخلاق؟ وإذا كنت حقيقة تعتقد بذلك أترى أن اعتقادك هذا اعتقاد علمى؟ اذا توهمت هذا فقد وقعت فى خطأ صراح. . فما هذه الفكرة، إذا صدقت بها، غير عقيدة لا ترتكز على أساس علمى، وهى لا تمتاز من ناحية الصحة والفساد، عن مثيلاتها مما لا يقوم على العلم، غير أن قيامها يدهش لدى شخص كان يزعم منذ قليل أنه متحرر من كل المذاهب والنحل. أعلم جيدا أن القرن التاسع عشر بذل جهده فى إرجاع كل ما هو روحى إلى المادة، ولكنه فشل. إن المشاهدات لا تبرهن أبدا على أن الحياة العقلية أو العاطفية تتضمنها الحياة المادية، بل بالعكس إنها تبرهن على أن الحياة الخلقية أو العاطفية تضيف إلى الحياة المادية عالما مجهولا بأكلمه. .

وأقبل عندئذ رئيس الطهاة الضخم، المورد الوجه، حاملا القهوة، وكانت مخايل الدهشة والاستغراب بادية عليه، فما من شك فى أن من ينزلون بفندق جونسن لم يتعودوا المناقشة بحرارة فى موضوع خلود الروح كما كنا نفعل، فالتزمت الصمت ولا سيما أن أدلة جيمس قد بعثت فى

نفسى الحيرة، فقدمت إليه سيجارة، وأخذ يدخن فترة من الزمن، ولا ينطق ببنت شفة.

ثم قلت أخيرا:

- مهما يكن.. مهما يكن من الأمر.. فلنحاول الأخذ بطريقة البرهان العكسى يا سيدى الدكتور.. إذا فرضت أن لكل شخص منا روحا خالدة، فأين يكون.

- يا للعجب - مليارات المليارات من الأنفس التى تنسمت الحياة وإلى أين تذهب مليارات مليارات المليارات من الأنفس التى سوف تتنسم الحياة؟.. أين أرواح الحيوانات؟.

لو كنت لاهوتيا لقلت لى إنها مجردة عن الأرواح، ولكنك من علماء الطبيعة.. هذه الأصناف التى لا تحصى من الحيوانات البرية والبحرية التى تنسمت الحياة، أين أرواحها؟..

ألا ترى أن رأيك مع كل هذا لا يقبله العقل؟

لو كنت لاهوتيا لأجبت بأن تلك الأعداد التى تبعث فى نفسك الفزع ليس شيئا بجانب عظمة الله ولا نهائيته.. على أنك الآن تتحدث عن حياة خالدة بعد الموت لجميع الشخصيات بينما أنا لا أطلب منك كل هذا ألا تستطيع أن تتصور أن كل جسم حى تتصل به كمية معينة من قوة مجهولة الطبيعة نسميها -على تسامح- السيال الحيوى، فماذا يمنع من أن نرى أن هذا السيال يعود إلى أصل مشترك؟..

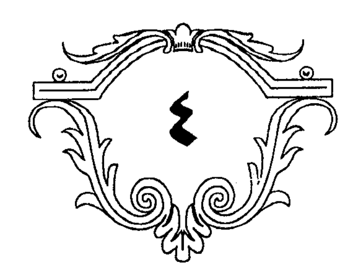
لماذا لا يكون هناك مصدر للاحتفاظ بالحياة مماثل لمصدر الاحتفاظ بالنشاط؟..

إذا أجبتنى إلى الموافقة على هذا فسأعلن رضاى.

-تعلن الرضى؟ ولكن لماذا، ياعزيزى الدكتور، تغالى فى أهمية فروض لاترتكز على أساس متين؟

قال وهو يشرع فى القيام:

- هذا ما سأشرحه لك بعد ساعة ياعزيزى إذا تفضلت بمرافقتى إلى المستشفى..



بينما كنا نتناول العشاء إذا بضباب كثيف يغمر جنبات المدينة، وكانت المصابيح المتقدة تبعث من السيارات المختفية فى وسط الضباب، أكاليل من الأنوار الحمراء والبيضاء، وكان منظر الاسترند يبعث فى النفس شيئا من الفزع

فأشار علىَّ جيمس أن أمسك بذراعه، وقادنى إلى العربة، وكان قد التزم الصمت منذ أن غادرنا الفندق، فما أن جلسنا حتى سألته:

- ماذا عسى أن نرى؟

- ربما لا نرى شيئا . . سوف تحكم بنفسك . .

وعلى أية حالة يجب أن تعلم أنك أول شخص أسر إليه بأبحاثى، وستفهم لماذا كان ذلك.

ثم أردف، وهو يلقى بنظرة عدائية إلى إمرأة لابسة ثياب الحداد وجالسة بالقرب منى.

أفضل ألا أتحدث هنا. وعبرت السيارة نهر التاميز فى وسط هالة من ضباب كثيف تخاله القطن الأصفر المندوف وقد أكسبت نيران المعامل، على ضفة النهر البغيضة، الليلة القطنية أنوارا عظيمة باهتة. أما أنا فقد صيرتنى هزات العربة المتتابعة وسنان وفجأة قال الدكتور جيمس:

- آن النزول. كنا حينئذ أمام مستشفى القديس برنابيه الذى كان يتألق تألقا خافتا فى غمرة الضباب، فقادنى جيمس -وسط الأفنية- والخطا

بمهارة الخبير المتثبت. وما لبثت أن رأيت باب حجرة الأموات المعدنى. ومع أنى كنت أقدر أنه سقودنى إلى تلك الغرفة، فقد أقشعر بدنى قسرا. وبدا رفيقى فى حالة توتر عصبى شديد. ماذا سيرينا جيمس من أسرار تتصل بعالم الموتى الرهيب فى مسائنا هذا؟ كان الباب مقفلا بالمزلاج فدق جيمس على الباب دقة طويلة أتبعها بدقتين قصيرتين.

فصاح جريجورى من الداخل مسمعا صوته الكريه:

ها أنذا يا سيدى..

وما أن سمعت صوته حتى استولت على حالة من الضيق تألمت لوجودها، غير أنى لم أتمكن من التغلب عليها. والآن، وأنا أفكر هادئا فى تلك الحالة، فإنى لا أجد من الهين على تعليل شدتها. فإذا كان جريجورى لم يرق فى عينى، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى اعتبارى إياه غير محضر لا ينفع ولا يضر، ثم إن معرفتى الطويلة بجيمس تبعث فى نفسى الثقة به، حقا لقد تغير كثيرا منذ عرفته فى أثناء الحرب. حقا لقد تغير حتى أصبحت أشك فى حاله أهو فى تمام عقله. ولكن ماذا كنت أخشى؟ أمنظر الموت؟ لقد ألفته فيما بين سنتى ١٩١٤- ١٩١٨ الاشتراك فى اقتراف جريمة بدون علمى ورضاى؟ ولكن أية جريمة؟

حاولت قدر جهدى، كما كنت أفعل منذ عشر سنوات، أثناء الضرب بالقنابل، ألا تطير نفسى شعاعا، وألا تراع، ثم ولجت الباب عازما على أن أكون مالكا زمام نفسى وقال جريجورى:

- سعد مساؤك يا سيدى الدكتور..

غير أنه حين لحظ وجودى شده، وظهر عليه أنه قد ضاق بى ذرعا وقال:

ماهذا يا سيدى الدكتور؟ . . أأحضرت معك شخصا؟ . . ثم اعتزل به ناحية وأسر إليه بصوت خافت ألفاظا لم أتبينها.

فقال جيمس بصوت عال:

- لا تعر هذا بالا، فصديقى هذا فرنسى غريب عن المستشفى، ثم إنه كان رفيقا وفيا لى طوال مدة الحرب، وسوف لايبوح بشئ. .

- آمل ذلك، آمل ذلك، وإلا كان الجزاء ياسيدى الدكتور، أن نودع المستشفى إلى الأبد.

فأجاب جيمس فى شئ من الضيق: حسن، حسن، أؤكد لك أنه سوف لا يبوح بشئ. . هل تسلمت الرجل؟

فتنحى جريجورى عن مكانه، مظهرا بذلك مائدة التشريح، فرأي علها جثة كاملة العرى، رأسها مرسلة إلى الوراء. وعرفت فيها الرجل ذا اللحية البيضاء الشقراء الذى رأيته فى الصباح يحتضر. لقد كنت اخطأت حين حسبته شيخا. كان المرض قد أنهك وجهه غير أن جسمه كان لايزال فتيا جميلا ذا عضل قوى يوحى -وهو فى حالة الموت تلك التى يرثى لها- بشعور مؤلم عن مقدار تلك القوة الهائلة التى أسرف فى تبذيرها وكان على فخذه الأيسر وشم يمثل ثعبانين متعانقين وعلى صدره وشم آخر يمثل زورقا ملأت قلوعه الريح.

قال جيمس: لقد تأخرنا. . هذا الضباب. . كم مضى من الزمن منذ أن أحضرته إلى هنا؟

لقد لفظ النفس الأخير فى الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين بالتقريب يا سيدى الدكتور. . والساعة الآن العاشرة والنصف.

قال الطبيب: لا بأس. . لم يضع الأمر برمته من يدنا كن نشيطا يا جريجورى! احضر الميزان.

ثم اسرع متلفتا نحوى: أما أنت فاجلس على أحد المقاعد.. لا تلفظ ببنت شفة ولاتأت بحركة الآن.. سأشرح لك فيما بعد ما تكون قد شاهدته.

وما أن اختفى جريجورى تحت المقاعد حتى ظهر حاملا آله، عرفت بعد أن أتم تركيبها وأعدها أنها ميزان، فى أعلاه لوحة صغيرة كميناء الساعة وبه عقرب. كان هذا الميزان يشبه ما نراه من مثله فى محطات السكك الحديدية. وكان المسطح الذى توضع عليه الأشياء للوزن بحيث يسع جثة إنسان ممدودة. فألقى عليها المحضر، بمساعدة جيمس، جثة الرجل الأشقر. ثم ثبت فى أعلى العقرب مرآة صغيرة. واختفى جريجورى من جديد تحت المقاعد، ثم عاد حاملا أسطوانة مركبة فوق عمود طويل. وسمعت لف زنبرك، فأيقنت أنه كان يملأ آله تشبه إن تكون ساعة.

قال الدكتور فى حدة:

- هيا أسرع يا جريجورى أسرع.. أمتأهب أنت؟

لأطفئ النور. وما إن أتم حديثه حتى كان النور قد انطفأ. وحينئذ رأيت شعاعا عكسته المرآة المثبتة فى أعلى العقرب يضئ الأسطوانة التى كانت تدور ببطء. وهكذا كلما تحرك العقرب حدثت حركة، أوسع نطاقا فى نقطة من النور على سطح الأسطوانة. كانت هذه هى بعينها الطريقة التى اعتيد استعمالها لزيادة حساسة الجلفانومتر. وقد شاهدتها قديما فى عهد الدراسة فى فصول الطبيعة.

لم أفهم شيئا قط من التجربة التى كنت أشاهدها، لكن الموضوع كان قد أخذ مظهرا علميا، **فأصبح مألوفا لدى، وأعاد الطمأنينة إلى نفسى، وأصبحت أشعر بجماله الفريد، فتلك الظلمة التى يتلألأ فيها شعاع** ضئيل، وهذا الجسم العارى الذى **يتوهمه الإنسان** فى إبهام خلال ظلمة

الليل، ووجه جيـمس المنحنى على الأسطوانه والذى كان يضيئـه الشعاع لحظة بعد أخرى، كـل هذا كان يذكرنى بلوحات المصـور ومبراندت التى تمثل فيلسوفا وكيماويا يعملان فى ظلمة باهتة لا يتخللها غير نور ضعيف منبعث من نافذة ضيقة غريبة.

خيم السـكوت على الغرفة لحظـة، ثم ارتفع صوت جيـمس من ثنايا الظلمات قائلا:

- هل بدأت تفـهم الآن؟.. لعلك أدركت أن النقـطة المضيـئـة على سطح الأسطوانة تعين وزن الجـسم.. انظر الآن إلى العلامتين المتـألقتين تحددان أعلى وأسـفل الأسطوانه.. تر أن النقطة التى يقع عليها الشـعاع تهـبط قليلا.. إذن وزن الجـثـة يقل فلم يقل؟ ليس من الصـعب إدراك السبب.. إن جزءا من الماء الذى يشتمل عليه أنسجة الجسم يتبخر ببطء، وبما أنه ليس هناك ما يعوضه من الغذاء.. لاحظ أن ذلك الهبوط مستمر فى انتظام، وهذا مـايمكن رؤيته إذا لاحظت النقطة المضـيئة تـهبط بدون ارتجاج. وفى الواقع لا يرى الإنسـان أية علة لعدم انتظام هذا التبـخر.. مضى الآن نحو سـاعة منذ حدوث الموت.. ستستـمر تلك الظاهرة مدة نصف ساعة أخـرى تقريبا. ثم ينبغى أن تركز انـتباهك على الأسطوانه.

وتلا ذلك صمت عمـيق حتى لقد سمعت تنفس جريجـورى وجيمس. استمرت النقطة المضيئـة فى هبوطها البطئ بينما الرجل -الذى كان، من غير ريب، فى عين زوجته وأطفـاله، مركز العالم- ملقى على المسطح، تجرى عليه تجربة غامضة. وفى سقف المدرج دق الجرس ثلاثة ثم اثنتين. وبعد هنيـهة قـال جيمس بصـوت لمحت فيه من جـديد التوتر العـصبى الشديد الذى كان انتابه فى بداية هذا المساء.

مضت ساعة وخمس وعشرون دقيقة. فعلقت بصرى بالأسطوانة لا أحيد عنها. وكنت أسمع فى وضوح دقات كرونومتر كان يحمله، من غير شك، فى يده وبعد فترة أخرى قال:

مضت ساعة ونصف.

ثم رأيت بعد ثوان، النقطة المضيئة تقفز فجأة. لقد كان القفز ضئيلا غير أنه كن من السهل ملاحظته. فصحت:

- هل رأيت يا دكتور؟

فرد جيمس ساخرا:

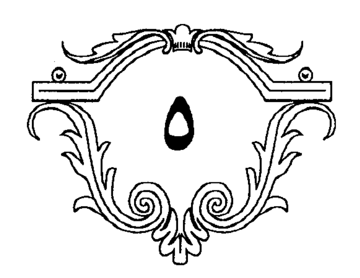
لقد رأيت جيدا وما أحضرتك هنا إلا لترى هذه الظاهرة، ثم أضاء جيمس المصابيح فرأيت، ولم أزل بعد فى حالة الغشاوة، شاربى جريجورى المدهونين اللامعين، والرجل الأشقر الممدود فى وضع من تلك الأوضاع الخاصة بالموتى، والتى يتبين فيها الإهمال والرخاوة.

عاودنى الهدوء وشعرت باتجاه قوى نحو المعرفة. ووجدت الموضوع شائقا إذ بدأت أفهم ما يبحث عنه صديقى. فوددت من كل قلبى أن أعلم كيف يفسر هو تجربته. وما لبثت أن قلت -لم يبق الآن إلا أن تشرح لى. .- انتظر. . يجب أن تترك جريجورى يذهب أولا لشأنه. . ثم نذهب نحن إلى غرفتى لأريك أشياء أخرى. . شكرا يا جريجورى إلى الغد. قال الرجل القصير بكل أدب. بينما يحمل الميت بين ذراعيه ليضعه على مائدة التشريح:

- أأحتفظ بالقلب للأستاذ سيمبسن.

فقال جيمس هازا كتفيه:

من الذى يهتم بالقلوب؟ نعم يجب طبعا أن تنفذ ما تؤمر به. وأخرج من جيبه مفكرة صغيرة دون عليها بعض الأرقام، ثم أخذ بذراعى وذهبنا.



أخذت مكانى فى المقعد الوحيد الموجود فى الغرفة وكان عن يمينى كأس من الويسكى، وعن يسارى علبة من السجاير، وما لبثت أن سألته:

- الآن يا دكتور؟

والآن يا صديقى افترض أنك تنتظر منى شرح ما شاهدنا.. ولكنى أود أن أعلم أولا رأيك فيما رأيت.

- أنا؟.. ماذا تريد أن أقول لك؟ إن الحديث الذى دار بيننا أثناء العشاء، ثم التجربة التى شاهدتها منذ لحظة يرشدان.

-فيما يظهر- أنك تبحث عن.. ما عساى أسميه.. النفس الإنسانية.. وإلى أنك تؤمن بالروح فتبحث عنها بطرق مادية.. مع أن هذا -معذرة وصفحا- كما يبدو لى يتعارض مع الروحية.. على أنه من الخطأ أن أتعجل فى الحكم ما دمت لا أعلم شيئا عن تجاربك فيما عدا تجربة هذا المساء. عليك إذن البدء فى الحديث.

كان جيمس واقفا متكأ على المدفأة فأشعل غليونه. وعندئذ -سمعت طنينا وراء الستارة الخضراء، كأنه صوت عدو له مخالب حادة على لوح من خشب.

- جيمس أصدقنى الخبر، إن هذه فيران، أليس كذلك؟ فقال مبتسما: فأر فأر!.. ينبغى أن أذهب بك لترى مسرحية هملت.. توجد الآن فرقة تمثيلية جديدة.. سنتحدث يا عزيزى عن الفيران بعد قليل. فلنعد إذن

إلى بنى الإنسان. . سأبدأ بالإجابة على اعتراضك الأول. لقد قلت لى: «إنك تبحث عن الروح فى صورة مادية».

ليس الأمر كذلك. . إذ انى لا أبحث عن الروح، بل عن نوع من الطاقة، إذا اتصل بالمادة منحها تلك الخاصة المجهولة: الحياة. . إنك توافق على أنه لم يمكن إلى الآن إحداث ظاهرة الحياة بواسطة تركيبات طبيعية على الرغم من تأكيدات الماديين المتعصبين.

-هذا صحيح. . غير أنه يمكننا الاعتقاد بأننا سنتبين الأمر فى ذلك يوما ما. فقال فى شئ من الضيق:

- إذا سرت على هذا النسق فليس هناك ما يمنع من اعتقاد كل شئ. . لكنى أكرر أن هذا ليس من العلم فى شئ، بل هو عقيدة لا ترتكز على أى أساس. . ومهما يكن الأمر، فلا يسعك إلا موافقتى على أننا علميا وتجريبيا، لا نعرف ما الحياة. . ليس من الحماقة إذن البحث -كما أحاول أن أفعل- عما إذا كان فى الأجسام الحية نوع من الطاقة يختلف عن كل الأنواع المعلومة. . لاحظ أن هذا البحث لا يثير المعنى الدينى أو الفلسفى للروح، ولكنه يبدله ويحوله ويؤخره إذا وصلت إلى اثبات أن كل كائن حى ينطوى على كتلة معينة من «السيال الحيوى» فإنه يبقى علينا بعد ذلك أن نميز فى هذا السيال نفسه بين ما يرجع إلى الروح وما يرجع إلى المادة. ثم يبقى علينا أيضا بيان كيفية ارتباطهما، أقول لك ذلك حتى لا تتأثر بالآراء القبيمة المتوارثة، فتشك -بدون تحقيق- فيما أحدثك عنه. .

- لقد بينت لك يا عزيزى جيمس موقفى فيما يتعلق بهذا، وأنا الآن مصغ إليك، بروح ناقدة، لكنها متحررة من كل قيد. . وعلى أية حال ففكرتك فيما يتعلق بالسيال الحيوى ليست جديدة فمسمر الذى كان أحد الأسباب البعيدة للثورة الفرنسية. .

فقال الدكتور وهو يأخذ نفسا عميقا من غليونه:

- نعم نعم أعلم ذلك... لكن هناك على الأخص شخص أهم منه قد سبقه، ويغلب على ظنى أنك تجهله، وهو البارون دى ريشنباخ.

- لقد صدقت، إنى لا أعرافه فمن هو؟

- إنه شخصية عجيبة، ولقد اعتقله رجال الشرطة الفرنسية.

لأنه أراد تأسيس دولة مستقلة جديدة..

لقد كان كيماويا كبير فهو الذى اخترع البرافينى والكربوزوت وفى سنة ١٩٦٠ انغمس فى دراسة مسألة إشعاعات الأجسام الحية. كان يملك فى بافاريا عدة قصور، هى فى الجمال غاية: بعضها يقع على شاطئ البحيرات، والبعض الآخر أنشأه فوق الجبال، ودأب يجمع فيها أناسا على جانب عظيم من الحساسية حتى أنهم ليرون -فى الظلام الحالك حول الآدميين والحيوانات والأزهار- سيالات مضيئة سماها ريشنباخ «أود» وهى كلمة سنسكريتية معناها «الذى يخترق كل شئ» هؤلاء الأشخاص الذين يجمعهم ريشنباخ يرون فى الظلام حول الأجسام إشعاعات خارجة منها ليست بدخان ولا ببخار، ولكنها تشبه أن تكون لهبا لطيفا.. غير أن من الغريب أن تلك الإشعاعات مشربة بالزرقة حول الجزء الأيمن من الجسم، وبالحمرة حول الجزء الأيسر منه لقد حاولت إعادة تجار ريشنباخ فلم أصل إلى أدنى نتيجة، ولا أظن أنك رأيت **«اللهب الأودى» حينما كنا مجتمعين منذ قليل فى الظلام الدامس، رغم أننا كنا جميعا فى حالة من الحساسية لاغاية بعدها؟**

- كلا لم أر شيئا.

وحول الجثة؟

لا شئ. .

وأنا أيضا لم أر شيئا، وكان الأمر كذلك ولكنى وجدت شيئا آخر، هأنذا أقص عليك أمره. . لقد قرأت فى صحيفة طبية كانت تصدر أثناء الحرب قصة تجربة قام بها رجل يدعى الدكتور كروكس، وقد قال إنه وزن جثث الحيوانات، فلاحظ هبوطا مفاجئا فى الوزن بعد زمن معين لكل فرد بعينه. . وقدر هذا الهبوط المفاجئ فى جثة الإنسان بسبعة عشر فى المائة من المليجرام، وانتهى من ذلك بقوله «إذن فالروح موجودة، ووزنها ١٧٪ من المليجرام» حملت هذه الصورة، غير المهذبة من البحث على الاعتقاد بأن ذلك من لغو الكلام . بل لقد أعلن أن كروكس هذا مخبول، فلم يقرأ أحد بحثه بعناية. . أما أنا فقد استوقفنى ظاهرة الإخلاص فى أسلوبه، والدقة فى ما أدلى به من تفاصيل، ومع ذلك فما كنت لأحاول إعادة تلك التجارب الصعبة المملة لو لم. . «وهنا توقف ولاح عليه أنه أسف على أخذه فى تلك الجملة، ثم قال دون أن يتممها» وفى العام الماضى أوحت إلى الظروف، وحياة المستشفى التى تضع فى متناول يدى الجثث، أن أتحقق من صحة قول كروكس. . فوجدت -على دهشة- أن ما قاله حق. .غير أنه لم يصل بالتجربة إلى غايتها الأخيرة. إن الهبوط المفاجئ أثناء استمرار التبخر عند الإنسان لا يحدث مرة واحدة فقط، بل يتكرر ثلاث مرات. فالمرة الأولى، تلك التى لاحظتها هذا المساء، تحدث بعد مضى ساعة وخمس وثلاثين دقيقة تقريبا من الموت، وتتراوح فيما بين ١٥٪ و١٩٪ من المليجرام. . أما الثانية والثالثة -ولم انتظرهما اليوم لتحققى منهما جيدا -فتحدث إحداهما بعد الأولى بعشرين دقيقة، وتحدث الأخيرة بعد ساعة تقريبا. . أتريد أن تقول شيئا؟

- ليس بشئ هام. . إنه لا يعدو ملاحظة بسيطة. . من الطبيعى أنك لا تتمكن من وضع الجثة على مسطح الميزان إلا بعد الموت ببضع دقائق، فمن يدريك أنه لم يحدث هبوط مفاجئ أثناء تلك الفترة؟

ففكر هنيهة ثم قال:

- هذا صحيح. . لكنى أعود إلى الحديث عما أعلم عن خبرة. . ففيما يتعلق بنتيجة التجربة لا يسعنا الشك. . لقد لاحظت ذلك بنفسك منذ قليل، وكل شخص يمكنه التحقق من ذلك، أضف إلى هذا أنى أجريت تلك التجارب على الحيوانات. لذلك جلبت تلك الفيران التى شغلت فكرك. . فاتضح لى أيضا من هذا أن استنتاجات كروكس صادقة، فالهبوط المفاجئ موجود هنا أيضا، على أنه ضئيل جدا بالنسبة للهبوط الذى يحدث فى وزن جثة الإنسان، إذ هو عند الفأر شديد الضعف حتى إنه من الصعب قياسه. هذا ما حدث، ولا محل للنقاش فيه. أما الاستنتاجات، فإنها موضع للنقاش. . وأشعل غليونه الذى كان قد انطفأ، ثم نظر إلى فلم أنبس ببنت شفة، فتابع الحديث قائلا:

- أنا ما وصلت إليه فى البحث للآن لا يوحى إلى بأن الروح تزن ١٧, ٠ من المليجرام كما يقول كروكس، بل بأن كل كائن حى، إنما مصدر حياته نوع لايزال مجهولا من الطاقة، يغادر الجسم بعد الموت. . لقد أقر علماء الطبيعة منذ أينشتين بأن لكل طاقة وزنا. . إنك تعلم أنه يمكننا وزن الضوء، وأنه يمكننا أيضا -من الوجهة النظرية- حصر الضوء وضغطه فى أنبوبة زجاجية. . فلم لا يكون الأمر كذلك فيما يتعلق بالطاقة الحيوية؟

حقيقة إن وزن الضوء بالنسبة لما نحن بصدد وزنه فى تجاربنا هذه، يكاد يكون منعدما. . ولكنى لا أرى أن فى هذه حجة ضدى، فإنه إذا دل على شئ فإنما يدل فقط على أننا أمام ظاهرة تختلف تمام الاختلاف،

وليس ذلك بعجيب. . لقد وصلنا الآن إلى معرفة حالات غريبة من حالات المادة، حتى أن طنا من الذرات المضغوطة إلى أصلها يمكنها أن تدخل فى جيبى الأصغر هذا. . أتتابعنى فى الفهم إلى الآن أم تحسبنى مخبولا؟

إن من الصعب أن أتعود هذا النوع من التفكير، غير أن ما تقوله يبدو لى فى غاية الوضوح. . على أنى سأوجه إليك اعتراضا مرة أخرى. إنك -فيما يظهر- تعتبر أن الجسم الإنسانى وحدة حية، بينما هو -على ما نعلم- ليس كذلك، إذ إن خلايا الجسم المختلفة لا تموت كلها فى آن واحد، فالقلب يحيا أكثر من المخ. ولاأزال أذكر أننى حينما كنت فى أمريكا رأيت فى معامل كارل، أنه من الممكن، بواسطة طرق صناعية، جعل خلايا القلب تستمر دهراً لا يكاد ينتهى. . يعضد هذا ما قاله أحد العلماء ولقد نسيت الآن اسمه، قال. . «إن خلايا الجسم بالنسبة للموت كسكان مدينة حلت بها مجاعة، فالأضعف يفارق الحياة قبل الأقوى» فإذا كان الموت يحل بالجسم تدريجيا، فكيف يتلاءم ذلك وفكرتك القائلة بالهبوط المفاجئ؟.

إن ملاحظتك هذه منطقية، و قد فكرت فيها. أما الجواب فهو أنى لا أشاهد هبوطا مفاجئا واحدا بل ثلاثة، ثم إن فكرتك عن الموت الفردى للخلايا لا تعدو أن تكون فرضا. . وإذا كان هناك نوع من القوة يرتكز عليه ما نسميه «بالشخصية» فينبغى أن تزول دفعة واحدة «وذلك بلا شك أثناء الهبوط المفاجئ الأعظم» وعلى أية حال فشخصية أحدنا تتميز تمام التميز عن حياة كل خلية من خلايا جسمه. . إن الشخصية إما أن توجد تامة أو لا توجد. . أكرر أنى لا أريد بذلك أن أجعل من الروح شيئا ماديا، ولكن -كما شرحت لك منذ قليل- بما أن الروح ترتبط بالجسم لكى تعبر عن أفكارها، ولكى تدرك ماتحس به، فمن الممكن أيضا أن

ترتبط بعد مفارقة الجسم بتلك الطاقة الحيوية المجهولة التى شاهدنا خروجها منذ قليل.

– أتريد أن تقول إن الشخصية تبقى بعد فناء الجسم إذا تمكنت الطاقة الحيوية فيه أن تتجمع كلها فى مكان واحد؟

– نعم.. ولكننى الآن لا أريد أن أؤكد شيئا، وإنما أقول فى بساطة تامة إن هذا ليس من المتعذر أن ينسجم مع العقل والمنطق.

– لكن هذه الطاقة، إذا نظرنا إلى الواقع لا تبقى متجمعة.

– إننا لا ندرى شيئا عن ذلك، غير أنه من الممكن (كما قلت لك فى الفندق منذ قليل) أن يكون الأمر فى هذا كالأمر فى المادة التى يتكون منها الجسم، والتى تعود فى صور مختلفة إلى المادة الكلية، كذلك القوة الحيوية التى عندنا، تعود -عند مفارقة الجسم- إلى المقر الهائل للطاقة الروحية. وتستمر هناك إلى اللحظة التى ترتبط فيها من جديد ببعض الجزئيات المادية، فتهب الحياة مرة أخرى لكائن آخر.

– أو بعبارة أخرى، أنك تعتقد بخلود النفس الكلية لا بالحياة الفردية بعد الموت؟..

إنك تتذوق الأفكار يا صديقى بأسلوب فرنسى حاد.. ألا ترى أنك تقودنى الآن إلى ميدان الفروض، وهو ميدان لا ينتهى إلى غاية؟.. إن المسألة التى تشغل دائرة تفكيرى أبسط من ذلك وأسهل.. إذا أمكننا الحصول على الطاقة الحيوية لإنسان ما، فهل ذلك يعنى أننا حصلنا أيضا فى الوقت نفسه على شخصيته؟ وهل يتحقق له بذلك -لا أقول الخلود الأبدى- (**كل المشاكل التى تدخل فيها فكرة اللانهاية تعلو على الإدراك** الإنسانى) ولكن، على الأقل، فترة من الحياة بعد الموت؟ وذلك ما أبحث عنه.

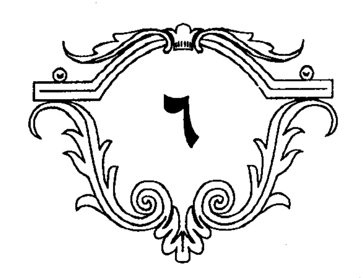
-إنه، إلى حد ما- جنون ولكنه جنون شائق يا دكتور.. وبعد، هل حاولت الحصول على هذا «الشئ» الذى يزن ١٧ ٪ من المليجرام؟

- إنى لم أتمكن بعد من إجراء تجربة ذلك الإنسان.. فأجربت التجربة على الحيوانات. إذ وضعت أثناء تجربة الميزان، بعض الحيوانات تحت أوعية من الزجاج. ولكن ماذا التقطت فيها؟ وهل التقطت شيئا ما؟ لم أدر قط من أمر ذلك قليلا ولا كثيراً.. على أننى أضطر لرفع الإناء الزجاجى حتى أتمكن من إخراج الحيوان، فإذا كان قد تجمع فى الإناء شئ، فهل ينطلق حين رفعه؟ إنى أجهل ذلك.. إذ إن السيال الحيوى لا يزال غير مرئى رغم ما يؤكده ريشنباخ.. وذلك لا يجعل الملاحظة سهلة.. طبعا عند إجراء التجربة على الإنسان تصبح النتيجة أكثر وضوحا بسبب أن ما يجرى عليه التجربة أكبر.. ولقد طلبت من أجل ذلك، منذ ثلاثة أيام، إناء زجاجيا يكفى لتغطية جسم الإنسان.. سيصلنى الأسبوع المقبل، وسنرى.. أتبقى هنا إلى ذلك الحين؟

- أنا مضطر للعودة إلى باريس لبضعة أيام، ولكن عملى لم يقارب بعد النهاية. لذلك سأكون فى لندن يوم الجمعة المقبل، حوالى الساعة السابعة مساء.. أتريد أن تتناول العشاء معى ذلك اليوم؟

- كلا، لا أستطيع أن أترك المستشفى يوم الجمعة.. ولكن احضر أنت إلى هنا وربما.. ونظر إلى طويلا كما ينظر البناء إلى عمود من الخشب أو إلى حائط ليقدر صلابته واحتماله ثم قال:

- طبعا أنت لا تزال عند وعدك بأن لا تتحدث إلى إنسان، كائنا من كان عما رأيته هنا.. ذلك أنى أفقد مكانى، وأفقد الوسائل التى أتمكن بها من متابعة تجاربى. فصافحته وشددت على يديه ثم افترقنا.



كان الضباب حينئذ مخيما على المدينة فأخذت أتلمس السبيل إلى الفندق حتى وصلته حوالى الساعة الثالثة صباحاً.

وعبثا حاولت النوم فلم أجد إليه من سبيل.

ها أنذا قد وصلت من هذه القصة إلى حيث قادتنى الظروف للقيام بدور له شأنه العظيم فى هذه المسألة وأريد أن أعترف، أولاً وقبل كل شئ، بأنى أخللت بوعدى المؤكد إلى جيمس بألا أتحدث عن أبحاثه إلى أحد.

إذ إنى تحدثت فى ذلك -وإن كان بطريق غير مباشر إلى عالم فرنسى. ومع ذلك فقد كان لى -على ما يبدو- عذر مقبول، ذلك أنى أولا لم أتعمد إفشاء السر، ولكن الاتفاق المحض هو الذى جعلنى فى هذه الفترة أقابل مونستيه أول مرة، ثم إن القارئ سيرى الأسئلة التى ألقيتها على مونستيه كانت موضوعة فى صورة لا تدع التفكير مطلقا يتجه إلى أن أبحاثا كهذه يقوم بها -على شدة غرابتها- طبيب. وأخيراً لا يسعنى إلا القول بأن ما فعلته، على ما فيه من قلة الاحتياط، قد عاون جيمس، على أن يخطو خطوة حاسمة نحو حل المسألة.

وصلت باريس يوم السبت، وفى مساء اليوم نفسه تناولت العشاء لدى بعض أصدقائى. وحينما أخذت مكانى من المائدة رأيت أن جارى عليها هو مونستيه. لقد كنت معجبا به منذ زمن بعيد، لا لأنه يعد -بعد جان

بيران ولنجفـان- أحد أعاظم علماء الطبيـعة عندنا، لكن لأنه -مع هذا- كاتب كبير. لقد فتنت بهذا الرجل المغرى.

كانت له عينان زرقـاوان حادتان كعينى طفل، وكان له شـعر أشيب، وصوت به غنة الشباب، وفيه طابع السرعة. إنى ما زلت أذكر أنه حدثنى أولا عن أبحاث اسنولت -بلتيرى، واحتمال السفر إلى القمر.

ثم قال:

- أنا لا أذهب إلى القمر، ولكن ربما يذهب إليه ولدى، أما حفيدى، فإنه يذهب من غيـر ما شك.. ومهمـا يكن الأمر، فسيوجـد متطوعون بالمئات..

فقلت:

- كيف يتنفسون؟

- يحملون معهم الأوكسيجين، وفيـما بعد، حينما تتكون هناك جالية من بنى الإنسان، سـيفتح سوق لتـجارة الأوكسيـجين، يذهب إليه ربات المنازل أو الخادمات لشراء ما يلزمهن من الهواء النقى، وستبدو تلك الحياة بسيطة فى نظر أولئك الذين سيحيونهـا. إذا كان يرى (كرستوف كولمب) لو وصـفت له البـاخرة (ايل دى فـرانس).. عـد إلى قراءة (چيل فـرن ورويلز)، تر أن كل أحـلام الجيل السابق قـد أصبـحت حقائق فى جـيلنا الحاضر.

وما إن تحدث عن چيل فرن وويلز بأسلوب شـائق حتى استولت على رغبة فجائية، ليس إلى دفعها من سبيل، فى أن أسأله عن القيمة العلمية **لأبحاث الدكتور جيمس، فقلت:**

-تصور أننى- أنا أيضا- أريد أن أكـتب قصة خياليـة. وبما أن الفرصة

الآن سانحة لاستطلاع رأى عـالم جليل، فإنى أكـون سعيـداً لو عرفت رأيك بشـأن قصتى.. ستجـد بالطبع أن الموضوع ضـلال أوهام.. إنى أعتبره كذلك أيضا.. ولكن على فرض أن عالما استولت عليه نوبة دفعته إلى القيام ببعض التجارب، فإنى أريد أن أعرف أى خطة يتخذ، والسبيل التى يسلكهـا. ثم أخذت أقص علـيه، كـحكاية خيـالية، أحـاديثى مع جيمس، والتـجارب التى شاهدتها. فـأنصت إلى، وعلى فمه ابتـسامة، وفى عينيه علامات الرضا والتشجيع، ثم قال:

-ليس هذا إغـراقـا فى الوهم، فلمـاذا لا توجـد أنفس كمـا توجـد الكتـرونات؟ إننا لا نكاد نعلم شـيـئـا.. وماذا تريد بالـضبط أن أقـول لك؟.. التجـارب التى يمكن لطبيـبك القيام بهـا؟.. لو كنت فى مكانه لحاولت أولا أن أبحث عما إذا كانت بعض الإشعاعات تظهر الطاقة التى يعتقد أنها موجودة تحت ناقوسه الزجاجى. أرأيت مواد مضيئة، خفية فى وضح النهار، تصبح مرئية فى الظلام إذا صـارت هدفا للأشعة التى فوق البنفسجية؟..

- كلا، إنى لم أر ذلك فى حياتى.

- سـأريك هذا، إنه منظر جـمـيـل.. أيمكنك أن تأتى غـداً إلى المعمل؟..

- **سأكون سعيداً بذلك.**

وفى الغد وجدته فى مـبنى جديد، بين آلات لامعة معقـدة التركيب. وفى اللحظة التى دخلت فـيها كان واقـفا أمام أنبـوبة زجاجية، وحـينما اقتـربت منها رأيت بداخلهـا حلقات من ضـوء وردى بنفسـجى شاحب عجيب، وما إن رآنى حتى قال:

- نهارك سعيد.. هاك ظاهرة غريبة.. انظر.. إنى أمر بقطعة من المغناطيس على هذه الأنبوبة..

كان بيدة قطعة من المعدن هلالية الشكل. فاتجه بها ببطء نحو اليمين. فرأيت حينئذ الحلقات تتبع قطعة المغناطيس، فيتباعد بعضها عن بعض، وتصير شفافة باهتة، أكثر من ذى قبل. ثم اتجه مونستيه بقطعة المغناطيس نحو الشمال فتداخلت الحلقات فى بعضها حتى لم تعد سوى حلقة صغيرة من مادة بنفسجية.

فقلت له:

- إن هذا لبديع حقا.. ولكن ما تفسير ذلك؟

- تلك هى المشكلة التى لم اهتد إلى حلها بعد.. ولكنك حضرت لتشاهد ظواهر أخرى.. لست أريد أن أضيع عليك زمنك.

وكان يوجد فى ركن من الغرفة آلة سوداء، تشبه آلة التصوير الكبيرة الحجم، مغطاةبالقماش الذى يستعمله المصورون حينما يشرعون فى التصوير.

- فقال مونستيه:

- هذه هى الآلة التى تنتج الأشعة فوق البنفسجية.. فالضوء المرئى يقف عند خروجه بسبب لوحة سوداء من خصائصها إنها لا تدع شيئا يمر إلا الأشعة الغير مرئية.. هل لك فى إطفاء الكهرباء؟ إن زر الإطفاء على الشمال قليلا.. والآن سأدير الآلة فى الظلام.. إنك لا ترى شيئا، وإذا وضعت يدك فى طريق الأشعة فإنك سترى أنها فى جزء منها، مرئية وإذا تركتها فترة طويلة من الزمن فإنها تحترق.. حسن.. سأضع الآن أمام الآلة كرة من الزجاج مملوة بالماء.. إنها لا ترى طبعاً.. ولكنى أسكب فى هذا الماء مادة تظهر عند مرور الأشعة التى فوق البنفسجية عليها.. انظر.

وفجأة ظهرت فى هذا الظلام الدامس نقطتان فى زرقة الصلب كأنهما كوكبان معلقان فى الليل، واتسعت كل منهما آخذه شكلا مخروطيا، ما فتئ يدور فى بطء ويكبر، وكلما كبر أخذ فى الخفوت، واشتد الخفوت، ورق الشكل وأصبحت الكرة مملوءة بما يشبه الدخان السائل، أو الغيم اللامع.

فقلت:

- ما أجمل هذا.. إن الإنسان ليكاد يعتقد أن يشهد خلق المادة.. ولكن لم كان هذا غير مرئى فى الضوء العادى؟

فأجاب وهو يبتسم:

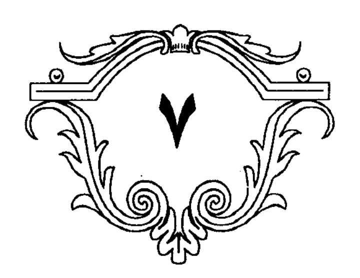
- إن التعليلات العلمية يا سيدى العزيز، ليست غالبا إلا مجرد ملاحظة للظواهر.. أتذكر ما قاله موليير quia est in eo virti dormitva «ذلك يبعث النوم لأنه منوم» لأن هناك جواهر لا ترى إلا فى الأشعة التى فوق البنفسجية.. وإذا عدنا إلى قصتك التى كانت ميدان أحلامى الليلة الماضية، فليس هناك ما يمنع من أن يصير السيال الحيوى الذى تزعمه مرئيا فى الأشعة التى فوق البنفسجية.. ويمكن أن يستعير طبيب من المستشفى آلة مثل هذه.. فإذا ما تم له ذلك فليضع أحد أوعيته الزجاجية بحيث تمر به الأشعة.. ومن يدرى؟ فلعله يرى فجأة «الأرواح» تصير واضحة لامعة.

- نعم.. إنها لفكرة حسنة.. ولكن ألا تظن أن زجاج الآنية يسمح للطاقة التى يحتويها أن تنطلق من بين مسامه.. ألا يلزم استعمال ناقوس من معدن أو من البلور؟

- آه! لست أدرى.. ذلك أن هذا يتعلق بطبيعة السيال الذى لا أعلم عنه شيئا، ولكننى لا أرى باعثا يدعو إلى الشك فى كفاية الزجاج..

على أنه إذا كان الزجـاج غير كاف، فـمن الممكن أن نفترض أن طبـيبك يستـعمل زجاجا مـغرى، فيسـتعمل حيـنئذ نواقيس جمـيلة من الزجاج الأحمر. . ولكننى أريد أن أريك شيئا آخر.

ثم أرانى صفائح من الصـابون رقيقة إلى أقصـى حد من الرقة تتكون علهيا بقع ملونة بألوان زاهـية لا تستقر على حال، فلم أجـرؤ حينئذ أن أحدثه عن «قصتى».



عـدت إلى لندن يوم الجـمـعـة مسـاء. وكـان بحـر المانش مضطربا سـاعة عـبورى، فشـعرت بتعب حـملنى على لزوم الراحة، فلم أذهب لرؤية جيـمس بالمستشفى إلا صبـيحة يوم السبت.

وحينمـا وصلت لم أجده فى حجـرته، غير أن بابهـا كان مفتـوحا، فدخلت لانتظره فيهـا. وكانت الستارة الخضراء منكشـفة عما وراءها من رفوف كانت مغطاة أثناء زيارتى الأول، فرأيت هذه المرة أنها تحمل ميزانا صغيـرا، وناقوسا من الزجـاج، وبعض الزجاجات الصغـيرة وفى انتظار عودة صديقى أخذت أنظر إلى صور النساء الموضوعة على منضدة الكتابة فرأيت حينئذ (وذلك مما لم ألاحظه أول يوم قابلتـه فيه) أن جميع الصور تمثل امرأة واحدة لا تزال فى حـداثة الشباب، حتى ليكاد الإنسان يعـتقد أنها لم تتجاوز سن الطفولة، تلوح عليهـا الوداعة والسذاجة. أما تقاطيع وجهها فـإنها ساحرة، ذات شعر ذهبى ناصع، يخـيل للإنسان أحيانا أنه مـائل إلى البـياض. وفى أغلب هذه الـصور كـانت ترتدى تلك الغـادة ملابس ليس لعـصرنا بها عهـد أممثلة هى؟ أم أنها تنعم بإحاطة جـمالها الرائع بصور مختلفة من الزينة؟ وبينما أنا مستـغرق فى أحلام يبعثها فينا دائما غمـوض سر الجمال فى الوجه الجمـيل، إذا بى أسمع وقع أقدام. فالتفت فـإذا بجيمس يضع يده على كتـفى، ولبث، هو أيضا، ينظر إلى الصور بضع لحظات.

ثم قال بصوته ذى الصرير:

- ها أنت ذا قد عدت أخيراً يا صديقى؟ كيف وجدت «باريس المرحة» ظريفة محببة.. لا أعلم مدينة تفوقها جمالا وفتنة.. وخاصة فى فصل الربيع.

- ولكننا لسنا بصدد ذلك.. وإنما بصدد أبحاثك ذاتها، فقد حصلت على توجيهات أعتقد أنها نافعة جداً.

- لأبحاثى؟ كيف؟

فحدثته بما كان، وبينت له أن الطريقة التى استعملتها لا تحمل فى ثناياها أى خطر، ووصفت له ما رأيت فى المعمل، ونقلت له كل ما أمكننى أن أحيط به من حديث مونستيه.

- أتتبين الأمر يا جميس؟ يخيل إلى أنه إذا أمكنك أن تجعل الأشعة التى فوق البنفسيجية تمر فوق الجثث، عندما تعتقد أن شيئا يفارقها فربما رأيت حينئذ أن السيال يصبح مرئيا حقيقة.. إننا بصدد فرض لا نعلم نتيجته ولكن ألا يمكنك أن تجرب؟..

إن آلة الأشعة لابد من أن يوجد بالمستشفى واحدة منها حتما.

فقل وهو مستغرق فى التفكير:

- نعم.. غير أن الصعوبة إنما هى فى الإتيان بها إلى حجرة التشريح.. ومع ذلك فهذا نفسه لا يدخل فى دائرة المستحيلات.. كم أنا شاكر لك على هذه الفكرة الطيبة.. كثيراً ما رأيت تجارب من هذا النوع.. ولكننى لم أفكر قط فى تطبيقها فيما أنا بصدده.. وعلى كل حال يمكننى أن أحاول التجربة فى حجرتى على أحد الحيوانات الصغيرة. ولعلك تتفضل بالحضور غداً مساء لنقوم بهذا معا فوعدته بالمجئ، ثم رجوته، إذا كان فى عزمه أن يقتل فأرا أو حيوانا آخر، أن يفعل ذلك قبل

حضورى، ذلك لأنى لا أطيق احتمال هذا المنظر. . فسخر قليلا منى ثم قال إن الحيوانات لا تتألم، إذ إنها تخدر قبل القتل بوساطة الحقن.

كان جيمس حينما لقيته فى مساء الغد فى حالة توتر عصبى لا تكاد توصف. وما إن سمع خطواتى على السلم حتى بادر لاستقبالى مادا كلتا يديه قائلا فى صوت خافت.

– مرحبا بصديقى. ما رأيك فى أننا عثرنا على حل للأمر الذى يهمنا والفضل لك.

– ماذا تعنى؟

– ادخل وشاهد الأمر بنفسك.

كانت الحجرة مظلمة ولكن جيمس قادنى وهو آخذ بكتفى قائلا:

-انتبه فإن الآلة فى وسط الغرفة. . اتجه قليلا نحو اليسار. . استمر فى الاتجاه أيضا. . حسن . . اتجه الان إلى الأمام. . أترى شيئا؟ فرأيت نحو المدفأة ضوءاً خافتا فى حجم البندقية تقريبا، غير أنه أطول قليلا. وحينما نظرت عن كثب لاحظت أن النور تتخلله تيارات لاتماثله فى الوضوح وإنما تقل عنه، وليست مستقرة وإنما تدور فى بطء عظيم. أما المنظر العام فإنه يذكر ببعض الصور للنجوم الخافتة الضوء.

فسألته:

-ماذا أرى؟. . إن ذلك طريف وعلى قدر كاف من الجمال. .

فقال!!!

– سأريك فى وضوح أكثر.

ثم ابتعد عنى لحظة وأنار الحجرة، فرأيت فوق المدفأة ناقوسا من الزجاج تحته فأر ميت ممدد على جنبه. واختفت بندقة النور الرمادية. فنظرت إلى جيمس فى هيئة المتسائل. فقال:

- إنك لتبدو مندهشا.. ومع ذلك فلم أقم إلا بوضع فكرتك موضع التنفيذ.. وما رأيت ليس إلا كتلة صغيرة من.. إنى لا أجرؤ على أن أسميها مادة.. فلنقل إذا شئت كتلة صغيرة من سيال مضئ يظهر فى الأشعة التى فوق البنفسجية، فى أعلى الناقوس، بعد موت الحيوان بإحدى وعشرين دقيقة. فتبلبلت أفكارى إلى حد كبير. ولم أكد أصدق ما رأيت وما سمعت.

- حقا إن هذا غريب مدهش يا جيمس..

وغريب أيضاً أن أحدا لم يفكر هذه الفكرة.. إنه اكتشاف عظيم. ألا تعتقد ذلك؟ إنى لم أعد أرى شيئا فى الناقوس.

إننا لا نراه فى الضوء العادى، وهذا ما يفسر لك كيف أننى -كغيرى من الناس- لم نلاحظ هذه الظاهرة فيما مضى.. ولكن طريقتك، أو إذا شئت الطريقة التى أوحى بها صديقك الطبيعى، هى التى حالفها التوفيق.

- إنى أود أن أرى من جديد.

فأطفأ النور وأدار الآلة، فما لبثت أن رأيت البندقية النورانية تلمع فى خفوت لطيف.

- إنى بدأت أعتقد يا جيمس أنك سائر فى طريق اكتشاف عجيب لم يدر بخلد أحد.. أتعتقد أنه الشخصية.. كلا، لا يمكن الحديث عن شخصية فأر..

أتعتقد أن ذاتية هذا الحيوان تستمر على صورة ما مرتبطة بهذا النور الضئيل؟

- إنى لا أعلم أكثر مما تعلم يا صديقى العزيز..

وكل ما يمكننى أن أقوله لك، هو أن ذلك -فيما يظهر لى- ممكن، بل مرجح. . وأن فى عزمى أن أعيد التجربة على الإنسان عندما يكون فى حوزتى ناقوس أكبر. . هذا وألفت نظرك إلى أن من حظنا أن يكون السيال أخف من الهواء، وأن ذلك يتجمع فى أعلى الناقوس ولذلك يكون من السهولة بمكان الاحتفاظ به، حتى ولو رفع الإنسان الناقوس لإخراج الجثة.

ثم مكثنا لحظات صامتين فى هذا الظلام الدامس، ننظر إلى البندقية النورانيه التى ربما كانت دليلا على وجود كائن خفى. . وأخيراً أضاء جيمس الحجرة.

فقلت:

- انه لغريب مدهش حقاً، أن ظواهر مهمة جداً، وبسيطة إلى حد كبير مكثت للآن بمعزل عن علم الناس.

- أتساءل لماذا؟. . أليس ذلك هو الذى حصل بالنسبة لكل الظواهر العلمية عندما تتصفح تاريخها؟ فكل القوانين الطبيعية موجودة منذ آلاف السنين تنتظر عقلا يفسرها. وحينما كان يترك رجل من هؤلاء الذين يسكنون فى الكهوف حجرا يقع فى النهر، كان يمكنه كما فعل فيما بعد جالينيو أن يكتشف قوانين الجاذبية. . ولكنه لم يفكر فيهذا. . ثم ما رأيك فى العواصف الموجودة منذ أن صارت الأرض أرضا، التى كان من الممكن أن تكون حقلا خصبا للتجارب التى ترشد الإنسان إلى وجودً الكهربائية، ولكنهم عللوا وجودها بغضب زس. . وقد ظل الناس محاطين بمختلف الأشعة التى تملأ الجو من وحولهم والتى يستخدمها اليوم علماء الطبيعة عندنا، هذه الأشعة بقيت خفية لا تدرك كالقوة الحيوية لهذه الفأرة.

- مسكينة تلك الفأرة.. أخرجها ياجيمس ..

إنى أتألم من رؤية هذه الجثة فى وسط صور هذه الغادة الحسناء.

وبعد فترة تردد -سألته: من هذه الغادة؟

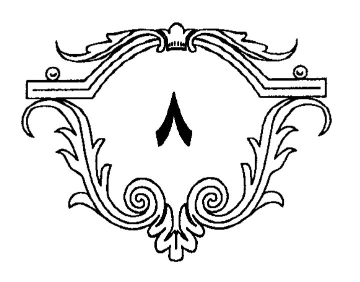
- ألا تعرفها؟ إنها أديت فيلبس، تلك الفتاة الممثلة التى يتهافت كل قاطنى لندن على رؤيتها فى تمثيل دور أو فيلى.. ألم تشهد تمثيلها بعد؟.. ينبغى أن أرافقك ذات مساء.

- أخرج الفأرة ياجيمس.

فرفع الناقوس فى حيطة وحذر، وسحب الفأرة من ذيلها الطويل ولفها فى ورقة، ثم قال:

- يجب أن ننظر الآن هل بقى النور مكانه.

ثم أعاد التجربة. فإذا بالبندقية النورانية تلمع فى أعلى الناقوس.



أصبحت زيارتى لمستشفى القديس برنابية تكاد تكون يومية.. وإذا كنت لم أنقطع عن عملى فى دار الكتب البريطانية، فذلك لأنى كنت مضطرا إلى الاستمرار فيه، ثم لأنه لا يمكننى أن أقضى طيلة يومى مع الدكتور جيمس الذى لا تترك له أعماله إلا قليلا من الحرية، ولكن أعمال صديقى أصبحت تشوقنى أكثر مما تشوقنى أعمالى. وكنت انتظر كل يوم بفارغ الصبر الساعة التى حددها لى.

أما فى دار الكتب فبدل أن كنت أقرأ، أخذت أنظر إلى جيرانى: هاهى ذى فتاة ذات منظار إطاره مصنوع من درقة السلحفاة، وها هو ذا هندى قصير ذو شعر مجعد، على أننى لم أكتف بالنظر إلى جيرانى بل أخذت أتخيلهم على ميزان جريجورى، وحينما يأتى موعد المستشفى كنت أسرع نحو مدينة المداخن والموانى.

وفى الطريق إلى المستشفى يمر الإنسان بسوق متواضعة جداً، رأيتها أول يوم زرت فيه المستشفى، تقام يومى الاثنين والخميس، من كل أسبوع فتعودت أن أقف تجاه الحوانيت التى تبيع السمك، أو الكتب بواقع الكتاب بنس، أو الأحذية القديمة. . وأحياناً كنت أتحدث مع الباعة وكنت أفضل من بينهم الحديث مع وليم سلاتر، ذلك أنه يمتاز برأس جميل تشبه رأس لورد شيخ، ثم إنه يمتاز بوجاهة طبيعية تدهش. كان يبيع قداحات غريبة، مركب فيها خنزير يبعث الشرر بساقه المرفوعة. أما الثمن فست

بنسات للواحدة. وكان ينادى «اختراع عجيب: قداحات لا يصيبها خلل، فلا تسلمك أبدا.. لقد بعت أمس كل بضاعتى تقريبا، ولم يبق منها إلا القليل».

وفى الواقع لم أره قطع يبيع شيئاً منها على الإطلاق، ومع ذلك فقد كان دائما على فمه ابتسامة مودة، وعليه مظهر الثقة بالحياة وكم كان بعيداً عن تفكيرى، حينما كنت أتحدث معه فى يوم خميس عن كساد تجارته، أنه سيكون فى الأسبوع التالى موضوعا للتجارب المدهشة الغريبة. غير أن هذا هو ما حدث. فقد أصيب وليم سلاتر بذات الجنب الحادة، فحمل إلى مستشفى القديس برنابيه فى حالة لا تدع للأمل مجالا. وفى اليوم نفسه أرسل محل تجارى -يفخر بأنه يمكنه أن يحضر للإنسان كل ما يريد -إلى جيمس الناقوس الذى يغطى الجثة الإنسانية، والذى كان قد طلبه جيمس قبل ذلك بثلاثة أسابيع.

وفى المساء حينما رافقت جيمس فى أثناء مروره بالمرضى، فوجئت مندهشا برؤية وجه وليم سلاتر -الهادئ الوديع عادة- قد التهب من أثر الحمى. وكان يصيح «الاختراع العجيب.. لم يبق منها إلا قليل» ثم رأيته فى الغد فى منتصف الليل على منضدة التشريح.

بدأت أتعود رؤية هذه المناظر التى تتصل عن قرب بالموت، ولذلك كنت هادئاً نسبياً. أما جيمس فقد كان فى هذا المساء -على العكس منى- فى حالة تهيج وقد ساعد جريجورى فى إخفاء الناقوس الكبير تحت المدرج، وكان يخشى أن يكسره الرجل القصير عند حمله معنا لوضعه على المنضدة فوق الجثة، وقد عدل الدكتور عن استخدام الميزان، إذ قد كان من الصعب -إن لم يكن من المستحيل- أن يوضع الناقوس فى اتزان على مسطح الميزان، ولكنه استعار مرة أخرى آلة الأشعة فوق البنفسجية.

أما جريجورى، فإنه لم يكن على علـم بأبحاثنا الجديدة، ولذلك ساعدنا وهو ضيق الصدر مضطرب.

وأخـيراً تمكنا من وضـع المسكين تحت الناقـوس الكبيـر، ووضع الآلة بحيث تمر أشعتها بأعلى النـاقوس. كل هذا أخذ وقتاً طويلاً حتى أنه لم يبق لنا بعد الانتهاء إلا ست دقائق على اللحظة المعـينة التى فيها -حسب معلوماتنا المألوفة- سيحدث (شـئ ما) فأشار جيمس الذى كان ينظر إلى الساعـة، على جريجورى أن يطفئ الـنور، فوجهت بصـرى نحو أعلى الناقوس الذى لـم أعـد أراه، ومكثت على هذا الوضع محاولاً ألا أحـيد عنه. فتراءى لى الانتظار طويلاً لا يكاد ينتهى. وبعد لأى قال جيمس:

- دقيقة واحدة.

أخـذت أعد فى بطء: واحـد . . اثنان . . ثلاثة . . أربعة . . وعندمـا وصلت فى العد إلى خمسين رأيت ضباباً يضرب إلى الزرقة تمثل لى أولا فى صورة غير محدودة تمتد على عـرض موقع الأشعة، ولكن هذه الفترة كانت من القصـر بحيث لم أتمكن من الملاحظة الدقيـقة، ثم مالبث هذا الضباب أن تركز مكونا كتلة لبنيـة اللون يبلغ طولها تقريباً أربع بوصات. واتخذ جزؤها الأسـفل شكلا أفقياً، أمـا الجزء الأعلى فقد استـدار تبعا لاستدارة الناقوس.

لم تكن هذه الكتلة جـامدة لا تتحرك، ولـم تكن مـتجانسـة، بل كان يرى بها تيارات بعضها أنصع من بعض، ولا يمكننى أن أصفها بالدقة إلا إذا طلبت إليك أن تتصور دخـان سجائر، يختلف فى كثافـته ولونه، قد نضدت دوراته الحلزونيـة ودوائره حتى تكون منها شى محـدد الجوانب، وما أن تين ذلك جريجورى حتى صاح فى هلع:

- دكتور . . دكتور . . دكتور . . أترى هذه البيضة النورانية؟

فنصـحه جـيمس بالتـزام السكون. وبينمـا أنا انتظر إذا بى أرى رأس الدكتور تعتـرض لحظة مرور الأشعة، فتضىء مـلامحه، ثم مالت الرأس واختفت فى الظلام، فشعـرت -وإن كنت لم أره- بأنه مائل نحو الجوهر الغريب الذى أصـبح أسيره، لكى يلاحظه عن كثب، واتجـه تفكيرى إلى وليم سـلاتر.. وأخذت أسـأل نفسى.. أحـقاً بقى تحت هذا النـاقوس الزجاجى شىء من هذه النفس الساذجة المستسلمة؟ أحقا أن مصدر الحياة لهذه الجثة تركز الآن فى هذا الحيز الصغير؟ اسجيننا قوة غير مشخصة أم هو وليم سلاتر نفسه؟ أيمكنه أن يرانا؟ أشاعر هو بما نفعله به؟ يفكر الآن فى «الاختراع العجيب..» فإذا كان -ولـو على فرض ضئيل الاحتمال- شاعراً، فهل من حقنا أن نأسره؟

وبينما أنا أفكر فى هذا، إذا بى أسمع جيمس يقول:

-النور ياجريجورى.

فأجـانى النور برؤية الدكـتور، والرجل القـصير ذى الشـارب المدهون اللامع، والآلة المغطـاة بالقـمـاش الأسـود، والناقـوس وقـد زالت عنه جاذبيـته، يغطى جثة رجل عـجوز ذى شارب أبيض. نظر إلى جـيمس هازا رأسه، فرأيت أنه ينوء بالنجاح الذى أناخ عليه بكلكله.

أما جريجورى فإنه خاطبنى قائلاً:

-أرأيت البيضة النوارنية يا سيدى؟

فأجاب جيمس فى شئ من الضيق:

لقد رأيناها جميعاً.. والذى أرجوه الآن يا جريجورى هو أن تحفظ فى عناية هذا الناقوس، فلا تكسره ولا تعكس وضعه الذى هو عليه الآن.. أتعى ما قلت لك؟

فأجاب جريجورى وهو منفعل قليلاً:

- نعم. . ولكن أرجو ألا تحضر ناقوسا آخر، فليس عندى له مكان. . بل لو رأى الطلبة هذا الناقوس. .

- أنى لا أحدثك عن ناقوس آخر. . سنساعدك فى وضع هذا تحت المدرج.

ثم تعاونا نحن الثلاثة فى حمله، وما كان ذلك سهلا. وبعد ذلك تركنا جريجورى الذى انطوى على نفسه والتزم الصمت. وما أن صرنا فى فناء المستشفى، تحت السماء المكللة بالنجوم، حتى قلت لجيمس:

- إنى أعتقد أن من الواجب أن تنيره فى الأمر بعض الشىء. . فأنت فى حاجة إليه. . أما هذا المساء. .

-إنك عجيب يا صديقى، ماذا تريد أن أقول له؟

إنه على علم بما أعلمه وماتعلمه، أيمكنك أنت أن تشرح ما رأينا؟

فعرفته بعجزى عن ذلك غير أنه يبدو لى أن التجربة تثبت النظريات التى شرحت لى عندما تناولنا العشاء معاً أول مرة.

فإذا كان يأمل الاحتفاظ بجزء من الكائنات الإنسانية بعد الموت، فإنه بصدد الوصول إلى ذلك. ثم إنى أعترف له بأننى لا أدرى إلام يقوده هذا النجاح، إذ إننا لو فرضنا أن ما تحت الناقوس هو روح وليم سلاتر المسكين، فإنه لا يمكنه أن يتصل به، وأضفت إلى ذلك أننى لا أعرف له بالحق فى أن يحتفظ بهذا الجوهر -الذى نجهل من أمره كل شىء- سجينا.

- افترض يا دكتور أن القانون الإنسانى هو أن سيالا حيويا يخرج حقيقة من الجسم ليمتزج بمصدر هائل للحياة، فبأى حق نعترض سبيله؟

ليست نواقيسك خالدة وسيـأتى اليوم الذى ينقطع فيه وليم سلاتر، رغم جهودك، عن أن يكون وليم سلاتر، فمـاذا تكون إذاً نتيجة عملك سوى تأخيـر وليم سلاتـر وإبقائه عبـثا فى ظروف ربمـا كانت بشـعة؟ . . إنك وصلت إلى اكتشاف سيمهد لك نوعا من المجد حينما تعزم على نشره . . ولكن ينبغى أن تقتصر من ضـرره على ما تضطرك إليه الضرورة «إن فى السماء والأرض لأشياء لم يحلم بها العلم الذى تعلمته ياهوراشيو . . »

فقال جيمس:

- إنك تذكرنى أنه ينبغى أن أرافـقك ذات مساء لرؤية هملت . . أتمنى لك ليلة سعيدة.



هذا التردد الكثير على مستشفى الدكتور برنابيه كان سببا فى أن أتعرف ببعض أطبائها، وكثيرا ما دعانى جيمس إلى تناول الطعام مع أطباء المستشفى الداخليين، فكانت الفرصة تتاح للحديث مع جيرانى، وعلى الأخص الدكتور دجبى طبيب

الأمراض العقلية بالمستشفى، الذى كان يلذ لى الحديث معه، ذلك أننى أميل دائما -وإن كنت لا أدرى لذلك تعليلا واضحا- إلى الاجتماع بأطباء الأمراض النفسية، ويخيل إلى أن خبرتهم بمرض العقول تعطيهم معرفة أوضح وأدق عن الأصحاء، فحديثهم ينطوى دائما على معلومات ثمينة لشخص مثلى يحاول أن يكون كاتبا، وأن يفهم طبائع الناس. ثم إن دجبى كان يروقنى أكث مما يروقنى غيره، فهو رجل قصير أصلع فى عينيه سمات العقل، يتحدث بصوت وديع وأسلوب محدد ناشئ عن ذكاء وعلم.

فى اليوم التالى لذلك المساء تحدثت عنه فى الفصل السابق، وصلت قبل الموعد الذى حدده لى جيمس ولما لم أجده أخذت أسير جيئة وذهابا على شاطئ النهر الذى يقع داخل المستشفى، وقد انتشرت عليه الأزهار، وهناك تقابلت مع دجبى وكان مرتديا الثوب الأبيض الذى يلبسه الأطباء فقال لى:

- أنت وحدك؟ إنها لمصادفة غريبة، أرجو ألا يكون صديقنا جيمس مريضا، إنى لم أره عند تناول الطعام.

- إن صحته فيما أعتقد حسنه، ولكنه لا يفرغ من علمه إلا بعد ربع ساعة.

فبدأ جملة، ثم توقف كما لو كان يتردد، ثم أخذ يقول:

-آه. .هاك ما. . كلا ولكن إذا . . بما أنك ستضيع من وقتك ربع ساعة فتفضل إلى مكتبى. كان مكتبه عبارة عن غرفة مفعمة بالضوء الطبيعى، تطل على الشاطئ، مملوءة بمختلف السجلات والجذاذات، وما إن جلسنا حتى بدأ يقول:

-سيجارة؟. . ويسكى؟. . لا؟. . اذاً أرجو أن تعيرنى سمعك قليلا، فإنى أريد أن أنتهز الفرصة التى أتاحت لى لقاءك متفردا لأتحدث معك عن جيمس. إنك صديقه، وفى الوقت نفسه أنت أجنبى عن المستشفى، فربما أمكنك لذلك أن تقوم لنا بأداء مكرمة جليلة.

- إنى أكون سعيدا لو أمكننى القيام بما تريد. . ولكن كيف؟. . إن تأثيرى فى جيمس. .

- سأحدثك بالموضوع. . ولكن ينبغى قبل هذا أن أنبهك إلى أنه سر لا يقال لشخص ما، بل ولا إلى جيمس نفسه. أتعاهدنى على هذا؟

- نعم. .

- حسن. . يلوح أنك على علم ببعض التجارب الخفية التى يقوم بها جيمس مستخدما فى ذلك جثث المرضى الذين يموتون فى هذه المستشفى، وذلك للوصول إلى هدف غير معروف. . أليس كذلك؟

- ياله من استجواب. . اننى لا أستطيع الإجابة يادكتور. . وأرجو ألا تعتبر هذا إثباتا أو نفيا. . فلست أعنى بكل بساطة إلا أن أعمال صديقى إنما تصدر عن وحى ضميره فقط.

فأجاب الدكتور مبتسما:

- إنى أقر وجهة نظرك، ولكنى متأكد بأننى أقوم بواجبى حينما أخبرك أن ولاة الأمور فى المستشفى قلقون إلى حد كبير.. نعم إن البحث لم يجر بعد فى هذا الموضوع، ذلك لأن كل من هنا أصدقاء جيمس، ولأن التجارب التى يقوم بها تبدو -حسب وصفها- غير مضرة وإن كانت لا تنسجم مع المنطق.

فقلت:

- حقيقة إنه إذا كان يباح تشريح الجثث فإنه يباح من باب أولى أن..

فقال:

- خذ حذرك إنك ستصرح بأكثر مما ترغب..

أرجو أن تدرك أنه لو وصلت هذه الإشاعات -لا إلى أطباء كما هو الأمر الآن- بل إلى أشخاص أقل تسامحا كبعض أعضاء مجلس المراقبة، فمن الممكن أن ينال صديقنا متاعب خطيرة.. على أن هذا أضعف البواعث التى تدعونى إلى الحديث معك فى هذا الشأن.. إنى أخشى على الأخص.. ستقول فى نفسك. هؤلاء الأخصائيون يرون فى كل شئ موضوعا يدخل فى دائرة تخصصهم.. فليكن.. إنى أخشى على الأخص أن يؤثر بعض الأبحاث على صحة جيمس العقلية، ولذلك يعنينى الآن أن أتحدث إليك -إذا سمحت بذلك- عن حالته النفسية، فالظروف -كما قلت سابقا- وضعتك منه بمكان يمكنك من إسداء الجميل نحوه.. أتعلم شيئا عن تاريخ حياته الشخصية؟

ماذا تعنى بتاريخ الحياة الشخصية؟ إنى عرفته أثناء الحرب.. ولا علم عندى بما حصل له قبل ذلك.. فضلا على أنى لا أعلم شيئا عن حياته

العاطفية منذ أن جمعت الحرب بيننا، وليس فى هذا غرابة، فهو إنجليزى لحما ودما، وككل انجليزى لا يكاد يتحدث عن هذه الأشياء.

سأرشك إذاً إلى مـا أعتقـد أن الضرورة تقـضى بأن تعرفـه. . تزوج جيمس فى مـارس سنة ١٩١٤ بفتاة دانماركية ذات جـمال رائع، وكانت تتعلم الطب فى لندن. ولقـد أتاحت لى الظروف أن أعرفهـا عن كثب. إنها فتاة ذات ذكاء مدهش، صـريحة، كريمة، ولكنها لم تألف قط الحياة الإنجليزية ولم تحب مطلقا جيمس، أما هو فـقد كان يعبدها، وإذا كانت قد تزوجت به، فمـا ذلك -على ما أعتقد- إلا رحمة بـه ورأفة بعواطفه الجيـاشة. . وحينمـا سافر جـيمس فى أواخر سـنة ١٩١٥ وجدت هيلدا جيمس نفسها وحيدة، وشعرت بمرارة العزلة، فعادت إلى قطرها، وهناك تقابلت مع شاب حـسن الهيئة والمنظر، فراقها، فكتـبت إلى جيمس فى صراحـة ولكنها خالية مـن كل مجاملة. . وطلبت إليـه تسريحها. فـثار ورفض. وفى يوم ما -بينمـا كان فى جبـهة القتال- علم أنهـا ماتت فى ظروف غامـضة، محزنة، قـاسية، لا أعـرفها فى وضوح. . فلم يشـعر بالسلوان قط منذ ذلك الحين.

- حقا إن الرجال صناديق مقفلة يا دكتور.

بينمـا كنت أعيش مـعه فى بلجـيكا، تحت سقف واحـد، كان الألم يعـتلج فى قلبه بـسبب هذه الحـادثة المحزنة ومـع ذلك فلم يبح لى بشئ منها.

- إنى أعتـرف لك بأن هذا العجز عن التـعبيـر عن عواطفنا هو -فى الوقت نفسه- مـصدر القوة فى أخلاقنا الوطنية- كانجليـز- ومصدرالخطر الذى يهـددنا. . إننا لا نسـلم أنفـسنا بألسنتنا، بل ننـطوى على أنفـسنا وننكمش. . وإذا كان الشعب يشعر بهـذا، ويفتخر به فى سذاجة. . واذا

كان هذا جديرا -بالقدير، فإنه مع ذلك خطر بالنسبة للصحة العقلية. . أما جيمس الذى تتبعت حالته عن كثب فقد أهمنى أمره، وفزعت من أجله مدة بضع سنوات بعد الحرب. . فقد كان يعيش حينئذ فى وحدة، وإحساس حاد بإملاق عاطفى مدقع يصعب عليك كفرنسى- فيما أعتقد- تصوره. . ولا أدرى أكان يبقى عقله لو لم يكن يعمل فى المستشفى عملا يروقه. . ثم انه منذ عامين -بينما كان يقضى إجازته بين أسرته فى ويلتشير- إذا به يدعى على عجل ليرى فتاة مريضة، لأن طبيب الناحية كان غائبا. كانت هذه الفتاة ممثلة. .

- أليست هى الآنسة أديث فيلبس؟

- آه! هل تحدث إليك عن الآنسة فيلبس؟

- كلا. . أوبعبارة أدق، حدثنى عنها بما لا يكاد يذكر. . ولكنى رأيت صورها فى حجرة جيمس فسألته من تكون؟. .

- رأيت إذًا أنها رائعة الجمال، ولكنك لم يمكنك أن تلاحظ التشابه القوى بينها وبين الغادة التى كان قد بنى بها. . وما من ريب فى أن هذا هو السبب الذى جعله يتعلق بها منذ اللحظة الأولى، وأخذ تعلقه يزداد قوة وعنفا على توالى الأيام، ولم يفتر قط. . لا يذهب خيالك إلى أن صلته بها كصلة الرجل بزوجته، فهى لا تزال عذراء، تعيش مع أبيها جيرالد فيلبس، الذى كان يعد هو نفسه أحد كبار ممثلينا. وما من شك فى أنها كانت تقبل على الزواج لو لم تكن صحتها ضعيفة جدا، حتى أننا -نحن الأطباء- يصعب علينا تعليل مقاومتها وقدرتها على الاستمرار فى مهنتها. . ما رأيها فى صديقنا جيمس؟ أتحبه؟ أتعطف عليه فقط؟ أم أن أمره لا يهمها فى قليل ولا كثير، إننى لم أرهما معا، وكل ما أعلمه عن ذلك، هو أنه هائم بها هياما لا أمل فيه ولا رجاء، وأنه يقضى

بجانبهـا كل ساعات فراغـه، وإنه -لعلمه بأنها مريضـة- يعيش فى فزع دائم مخافـة أن تفاجئها المنية. . ذلك كل مـا أريد أن أقوله لك لإرشادك وهدايتك نوعا ما فى عـلاقتك به. . ولا أريد أن أضيف إليه شيـئا ما مما استنتـجته من جمـيع هذه الأحداث. . ذلك لأنى أعلم ائتلافكمـا البالغ -وأعلم- على أسفى، تجريبيـا- أنه من الخطر أن يبذر الإنسان فى وسط سـريع التأثـر أى إيحاء، إذا إنه يؤول تأويـلا سيـئـا. . اعتـذر عن هذه الصراحة.

- **أشكرك يا دكتور دجبى،** ولكنى لا أدرك جيدا مـا تريد أن تقول. . أى دور ترغب أن أقوم به؟ ليس لى كـما تعلم أى سلطة على جـيمس، ثم إننى لا أعرف الآنسة فيليب فضـلا عن أن إقامتى فى انجلترا أصبحت وشيكـة الانتهاء. . ولم يـعد فى إمكانى -ولو رغـبت إطالتهـا- وإذا ما سافرت فمن المحتمل جدا أن تنقطع صلتى بجيمس.

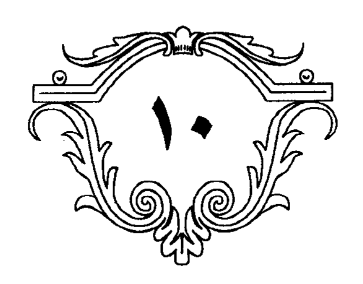
كل هذا صحـيح وأنا لا أطلب إليك شيـئا محـددا، واضح المعالم. . وما أردت إلا أن أنيـرك فى الموضوع حـتى لا تسيـر على غيـر هدى فى طريق غير ممهد. . والآن اقض ما أنت قاض. . فإذا كان يمكنك فى قليل من الزمن أن تصرف صديقنا عن أبحاث تحيـد عن الصراط المستقيم، فإن ذلك يكون -فيما اعتقد- مكرمـة تسديها إليه، بل مكرمتين. . ها قد آن الأوان لتذهب إليـه، على عجل، فقد استـمر الحديث بنا أكـثر من ربع ساعة.

وحينما تركته ووصلت إلى غرفة جيمس سمعت صوت الجرس يدق:

اثنان -أربعـا. . اثنان- أربعا. . فعـلمت أن جيمس دعـى إلى إحدى حجـرات المرضى، فلم يكن لى بد من انتظاره، فلاحظت حـينئذ أن من بين الصور الموضوعة على المدفأة،واحدة تمتـاز بكبر حجمها، واذا أمعنت

النظر فيـها رأيت أنها صـورة غادة أصغر سنا وأضـعف بنية من صاحـبة سائر الصور.

وإذا كنت لم ألاحظ هذا أول مرة، فذلك لأنها تشـبه الصور الأخرى شبها قويا يكاد يصل إلى حد التطابق.



حينما اقترح على جيمس ، منذ عدة أيام الذهاب لرؤية هملت ، لم أعر دعوته العناية التامة، فالحياة التى أحياها معه - بين المرضى ، وعلى صلة بأبحاثه - كانت تبدو لى - فى جمالها واختلاف مناظرها - أنها لا تقل روعة عن قصص العباقرة التى يمتزج فيها الألم بالمرح .

ولكن بعد المحادثة مع دجبى استولت على رغبة حادة فى معرفة أديث فيليبس ، فذكرت جيمس بوعده ، فعرفنى بأنه سيطلب الاحتفاظ بمكانين حينما يتاح له أن يفرغ ذات مساء من عمله ، وفى أثناء ذهابنا إلى المسرح أنبأنى بأن الفرق التي تمثل ، فرقة شعبية ، وقد أعجب النقاد كثيرا بالشاب الذى كان يمثل دور هملت ، وبممثل عجوز غير معروف كان يقوم بدور بولينيوس، ولكنهم أعجبوا على الأخص بالآنسة أديث فيليبس فى تمثيلها دور أفلى . هذا الإعجاب البالغ جعل مدير ويست اند يقدم للفرقة صالة التمثيل . ومنذ ذلك الحين تهافت كل سكان لندن على رؤية تلك الفرقة وأصبح شكسبير « مودة» وكثير من الأشخاص يقولون عند خروجهم أنهم رأوا هملت أول مرة . وهذا صحيح بالنسبة لأغلبهم ، على أن الإنجليز يكتشفون من جديد هملت كل خمسين عاما ويعجبون به ، وما كانت أديث فيليبس إلا متابعة لمجهود أبيها الذى بدأ منذ نصف قرن أعنى منذ سنة ١٨٨٠ يوحى إلى أهل لندن بعبقرية الكاتب الذى لا يزال مجهولا : وليم شكسبير .

كان هملت هذا المساء شيئا جديدا جدا بالنسبة لى وبالنسبة للنظارة الذين كان جيمس يسخر منهم ، فقد اتبع الممثلون خطة حكيمة بسيطة ، وإن كانت لا تتبع إلا نادراً ، وهى عدم حذف شيء مما كتبه شكسبير . وكان الشاب الذى يمثل أمير الدانمرك يقوم بدوره فى قوة وفى بساطة طبيعية ، وحينما تحدث عن هذا العالم «الممل، الخلق ، العقيم» خيل إلى أنه قريب إلى أنفسنا قرب بارس الشاب أو قرب بنجين كنستان . فقد كانت تلك صورة الشاب الباقى على الدهر ، وما إن ظهرت الآنسة اديث فيليبس حتي رأيت أنها تصور هى أيضا صورة الفتاة الباقية على الدهر ، ولقد أظهرت فى أول دور ظهرت فيه مع بولونيوس مزيجا من الحياء ، والجرأة الساذجة ، والخضوع الذى يشبه خضوع الأطفال ، والسعادة التي بعثها علمها بأنها محبوبة .

هذا المزيج المنسجم راقى إلى حد بالغ .

فقلت لجيمس فيما بين المنظرين :

– حقا إن صديقتك لرائعة الجمال .

فظهرت عليه ملامح السعيد المغتبط ، وقال :

– يمكنك أن تعبر لها عن ذلك بنفسك عما قريب ، فقد أنبأتها بأننا سنتناول العشاء معا . . أراقك التمثيل ؟

– أجل لشد ما راقنى . . إنه لجد بديع . . غير أننى لا أغمض الطرف عن ملاحظة واحدة : هى الشبح ، فقد أخلف ظنى ، لم جعلوه يتحدث من وراء حجاب ؟ . . كان يجب أن يصرخ «الخلد العجوز» من تحت السيوف : أقسموا . . أتذكر كل ما قاله جوته خاصا بذلك فى «ولهلم مايستر». . ؟ يرى جوته أن الشبح يجب أن يتحرك تحت الأرض، وأن شعلة صغيرة، تخرج من الأرض، تتحرك معه فترشد إلى مكانه.

فنظر إلى جيمس وعلى فمه ابتسامة لا تكاد ترى وقال فى صوت خافت :

- الشعلة الأودية ؟ . . إنى لأسأل نفسى عما يفعله الآن شبح وليم سلاتر ؟

- نعم، وإنى لأريد أن أوجه إليك نفس السؤال ألا يزال تحت الناقوس.

- نعم لقد رأيته مساء الأمس أيضا، إن السجن الزجاجى يخلص لنا فى الاحتفاظ به .

- ألا تريد يا دكتور أن تمنحه الحرية ؟

فوضع إصبعه على فمه يشير بالتزام الصمت . ذلك أن إحدى بائعات المسرح كانت أمامنا تعرض المثلجات وعلب الشكولاته ، ثم دق الجرس يعلن العودة إلى التمثيل ، فعدنا إلى الاستغراق فى عالم شكسبير .

سيعجب قوم من غير ما شك فى تحدثى بهذه التفاصيل عن تمثيل «هملت» أثناء قصة تختلف عنها كل الاختلاف ، ولكن لهذا سببين قويين : أولهما - أننى فى ذلك المساء عرفت الآنسة اديث فيليبس وهى - كما سترى - تقوم بدور مهم فى الموضوع الذى أذيع سره هنا .وثانيهما - أن جو «هملت» بقى - ولست أدري لماذا - مرتبطا بذكرياتى عن الدكتور جيمس ، فضلا عن أنه فى ذلك المساء أتيحت لى هذه الفرصة الوحيدة لتقدير عمق عواطف جيمس الخفية البائسة ، التى تختبئ فى شغاف هذا الكائن المفجوع الذى لا يدع ما بين جنبيه يظهر للناس . وحينما أخذت الفرقة فى القيام بدور الممثلين ، ورأى هملت أن من المخزى أن ممثلا يمكنه أن ينتحب وأن يصير شاحب اللون من أجل انفعال مفتعل ، بينما هو يمكث هادئا مع ما به من عاطفة جياشة . . حينئذ

رأيت جيمس يميل إلى الأمام فاغراً فـاه كما لو كان هو نفسه على وشك أن ينشـد ما يقـوله الممثلون من شـعر . وفى أثناء الدور الخـاص بجنون أوفلى رأيت أول مرة - وهى الواحـدة طوال عشرتنا مـعا - دمعـة تسيل على خده . حقـا لقد مثلت أديت فيليبس دورها فى قـوة أثارت الرحمة وبينمـا كانت عـيناها تنظران إلى عالم خـيالى ، كـانت تغنى وتتـحدث بصوت يسـير على نسق واحد لا يتـغير ، لكنه وديع بالغ غـاية الرقة ، وكانت تقـدم أزهارا تراها فى عالمها المجـهول الخيالى ولا وجـود لها فى أعيننا « ها هى ذى الأزهار . إنها للذكرى . أرجـوك يا حبيبى العزيز أن تتذكر . . . . » لقد ذكرتنى أنا أيضاً بأشياء كثيرة جميلة مضت وانتهت .

فقال لى جيمس فى فترة الراحة :

- أتعلم سر إبداعـها فى تمثيلها ؟ إنها تبـعث الشعور «الذى كثـيراً ما تبعثـه ذوات الجنون الحقيقى» بأن الجنون مـا هو إلا ملجأ يكاد يكون عن شعور . . لم تعد أوفلى تريد أن ترى هذا العالم البشع ، فخلقت لنفسها عالما آخـر هو عالم الأزهار والذكـريات وستتـحدث عنه بصـوتها الوديع المستمـر إلى النهاية . . الواقع أننى لم أر فى حيـاتى مسرحاً تتـجلى فيه الناحية الإنسانية ، وينسجم مع الطبيعة البشرية ، أكثر من هذا المسرح .

بعد أن غطى المسرح بالموتى وانتزع الشاب فور تنبراس هملت محمولا على أكتـاف أربعة من الضبـاط ، وبعد أن صفق الشـاب طويلا وضرب على الموسيقى النشيد الوطنى الانجليزى ، خرجنا صامتين .

وبعد فترة قلت :

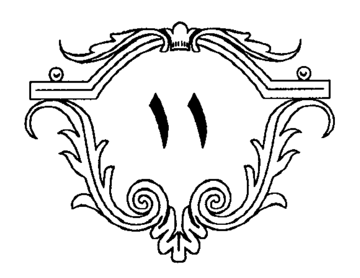
- يا لها من مذبحة بشرية مريعة .

- كما نرى فى الحياة الواقعية . . **ألك فـى مرافقتى إلى الجهة الخلفية** لنتقابل مع أديث أمام الباب الآخر . . ؟

إنهـا - بدون شك - تأهبت للخروج ، فـقد كـانت عندها الفـرصة الكافية لاستبدال ملابسها منذ أن بدأ الفصل الأخير إلى الآن .

ولما وصلنا وجدنا أنها فى انتظارنا عند بواب المسرح . لقد كانت فى غاية البساطة ، وما إن وجهت إليـها بعض عبارات الثناء حتى ظهرت عليها - فى سـذاجة - علامات الغبطة ، مع أن نقاد لندن وجـهوا إليها ثناء عاطراً قـائلين إنها ممثلة عبقـرية ، وقادنا جيمس إلى مطعم صـغير فرنسى، وفى أضوائه المتـألقة أمكننى أن أرى الآنسـة أديث فيليـبس فى وضوح . لم تكن فى جمالها الواقعى تقل عنها فى الصور ولكنها كانت شاحـبة إلى حد يثيـر الدهشة ، وكانت مـرحة أثناء تناول العشـاء . أما أسلوبها فى الحـديث فقد أخلف ظنى ، ولكن ألسنا دائما نجـد مثل هذا الشعور أمـام ممثلة شاهدناها تمثل فى مسرحـية العباقـرة؟ إننا - عن غير شعـور منا - نلبس الممثلة دائما روح شكسـبير أو موسـيه ، ونكاد نأمل ونرجو أن تكون فى الحياة الواقعية جولييت أو دسدمون أوكامى ، ولكننا لا نلبث أن نجد طفلة مـثل اديث فيليبس ، وما من شك فى أننى حـينئذ لم يكن عندى استـعداد كاف لاكتشـاف ما بها من مثـالية ، ولكنى الآن أتمثل مـا كانت عليـه أديث فيليـبس من طابع شكسبـيرى دقـيق لاحظه جيـمس وأدركه من عهـد بعيـد . لكم تأثرت بالإعجاب الـرقيق الحنون الذى يظهره جيمس نحوها .

وما لبثنا أن افترقنا حينما غادرنا المطعم ، ذلك أنه أراد أن يرافقها إلى حيث يوجد أبوها قبل أن يتخذ طريقه إلى المستشفى .



إذا كنت قد وفقت فى إعطائك فكرة عن أخلاق جيمس، فإنك تكون قد أدركت أننا لم نشر فيما بعد موضوع اديث فيليبس، ولقد حاولت غير مرة أن أثير فى الدكتور الرغبة فى الحديث بأخذى صورة من صورها التى على المدفأ ، وتحديقى فيها بانتباه .

فلم أنجح فى محاولتى . وإذا كنت قد أسفت لهذا ، فليس ذلك ناشئا فقط عن الرغبة المكبوتة فيحب الاستطلاع ، وإنما لأنى كنت ولاأزال أعتقد ، أنه لواستطاع صديقى أن يشرح عواطفه الغامضة الحزينة التى ينوء بها، لخفف ذلك آلامه وبؤسه . على أننى حاولت غير مرة - كما وعدت الدكتور دجبى- أن أصرفه عن تجاربه ، فوجهت انتباهه إلى أن جريجورى لم يعد - كما كان سابقا - طوع أمره ، وأن هذا الرجل القصير، لم يعد يساعدنا إلا وهو ضيق الصدر بنا حذرا، بل إن أوراق النقد التى كان جيمس يبذلها له والتى كانت تزداد ثم تزداد أصبحت لاتكاد تكفى الآن لتحريك شفتيه بكلمة شكر. ولكن هذه العوارض المقلقة لم تكن لتخفى على حصافة الدكتور، ومع ذلك فلم ينقطع عن الذهاب إلى المدرج ، ولعل له عذرا، فما من شك فى أن أبحاثه أخذت اتجاها غريبا يشوق جدا وإنى - أنا الذى ألومه - لم يكن فى مقدورى الامتناع عن متابعة تلك الأبحاث فى حرارة وتحمس .

كان من الصعب تحـري هذه النواقيس الزجاجيـة ذات الحجم الهائل، والاحتفـاظ بها، فعرضت لجـيمس فكرة بسيطة ولكنها مـوفقة : هى أن يركب فى أعلى النواقيس كـرة زجاجية يبلغ قطرها أربع بوصـات تقريبا تتصل بالناقوس بواسطة أنبوبة زجاجية . وحينما استخدمت الأشعة فوق البنفسجية لرؤية ما يحدث، شـوهد - كما هو متوقع - أن السيال ارتفع من الناقوس إلى الكرة ، فأصبحت كلها تقريبا مضيئة بينما بقى الناقوس مظلمـا ، وأنه لمن السهـولة بمكان فـصل الكرة الزجاجـية عن الناقـوس ولحمـها ثم الاحـتفاظ بـ«الـطاقة» التى نحن بصـدد البحث عنهـا وكلما اقتـضى الأمر يمكن لحم أنبوبة زجاجـية جديدة بالناقـوس تعلوها كرة ، وبذلك يمكن اسـتخـدام ناقـوس واحد مـا دام محـاطا بالعناية حـتى لا يكسر.

هذه الكرات الزجاجـية الصغـيرة ، الى يسهل حـملها ، احتـفظ بها الدكتـور فى حجرته الخاصـة . وحتى لايختلط عليـه الأمر في التميـيز بينها، ألصق بكل منها بطاقة كـتب عليها اسم الشخص الذى شع منه ما تحتـويه الكرة ، وتاريخ الحادثة التى يسمـيها الآخـرون الموت، ويسميـها جيمس التحول. كانت الكرة رقم ١ لوليم سلاتر ، ورقم ٢ للسيدة بريم بائعة الـسمك الثعـبانى، ورقم ٣ لبـحار نرويجى، ويبلغ عـدد الكرات جميعها سبعا، موضوعة الواحدة تلو الأخرى، على رف خصص لها فى حجرة جيـمس. لقد كنت أمضى الساعات فى النظر إليـها، وهى أمامى تشبه فقاقيع الصابون صيرتها صلبة معجزة من المعجزات فجأة. وفى كل منها يتحرك تياران مستطيلان يمـتزج فيهما اللون الأزرق باللون الأخضر، أحدهما مسنم والآخر مجـوف، واستدار كلاهما مع الكرة. لم يكن هذا - على ما أعتقد - سوى صورتى السماء والأشجار المنعكسة على زجاج النافـذة، غيـر أني أحيـانا كنت أعـتقـد أنى أرى داخل الكرات أشكالا

تدهشنى، وحينما كان يجدنى جيمس منكبا على الكرات أتأملها كان يقول :

- آه إنك تنظر إلى «نفوسى».

- إنى أريد من كل قلبى أن تمنحها الحرية يادكتور .

- فيما بعد . فيمابعد . . حينما أعلم عنها كل ما يمكننى أن أتعلمه منها . .

كان جيمس لا يفتأ بين آونة وأخرى يتحقق بواسطة الأشعة من عدم هرب «نفوسه» أو بالأحرى، كما كان يقول « أطيافه السيالة » من خلال سجنها الشفاف ، فلا يلاحظ أى تغيير إذ يجد فى كل مرة الضوء اللبنى نفسه، والحركات الدائرية بعينها ، وما من شك فى أن حياة حقيقية ، وإن كنا لا ندرك كنهها ، باقية داخل الكرات.

اكتشف جيمس أن للسيال تأثيرا واضحا فى الأشياء، فحينما يقرب من الكرة لوحة من مادة عازلة ،فإنها تضئ فى خفوت. هذه الظاهرة جعلتنى، فترة طويلة، آمل حدوث الاتصال بالأطياف. إن الضوء الذى تحدثه الكرات على اللوحات يتغير باستمرار ،ألا يمكن المخاطبة بواسطة طول هذه الفترات الضوئية وقصرها ؟ كل محاولاتى لشرح هذه العلامات الضوئية ذهبت مع الريح ، أما جيمس فإنه حاول أن يؤثر فى أروحه، مرة عن طريق أشعة إكس، وأخرى عن طريق أشعة الراديوم .

هذه التجارب التى لم تؤد إلى نتيجة كان لها تأثير سيىء فى نفسى . وقد كنت أشعر بأنها عديمة الجدوى، فضلا عن أنها قاسية شديدة القسوة، ولا غرابة فى أن نستعمل هنا كلمة «القسوة» إذ إننا نجهل كل شيء عن أثر هذه التجارب على جوهر من الممكن أن يكون حساسا، ولقد ناقشت جيمس، غير مرة، محاولا صرفه عن ذلك فلم أصل إلى

نتيجة، ثم عدنا إلى مناقشات كانت من العنف بحيث خيل إلى حينا أنها ستضع حدا لصداقتنا، وذلك لسبب تجربة أكثر بساطة من سابقاتها، ولكنها بدت لى أكثرقسوة وأشد فظاعة .

فقد اضطرتنى أبحاثى للذهاب إلي دار كتب فى اكسفورد فغبت يومين عن المستشفى، وحين عودتى ذهبت لزيارة صديقى فوجدته بصدد اختيار كرتين جديدتين أضيفتا إلى مجموعته أثناء غيبتى، إحداها تحمل رقم ٨ والثانية رقم ٩، وأخبرنى جيمس أن رقم ٨ فتاة راقصة انتحرت، اسمها أجاتالين، أما رقم٩ فهو روسى، اسمه ديمترى دوسكف، مات بالسرطان.

ولكنى دهشت حينما رأيت الكرتين. ذلك أن جيمس بدل أن يفصل الأنبوبة عن الكرة، فتعود تامة التكور، ابقى الأنبوبة واكتفى بأن لحم نهايتها.

فقلت:

- هل اتخذت طريقة جديدة .. إننى لا أحبها .. إنك بذلك تزيل كل ما لفقاقيع الصابون من جمال .

- إنك لا تدرى ما سأفعل.. وسترى أننى محق فى هذا العمل ، بل إنى لأعتقد أنك، أنت الذى تشكو دائماً من احتمال وجود القسوة فى حبس روح منعزلة عن غيرها، ستكون مسرورا منى.

- ماذا تعنى؟

- إن الأمر فى غاية البساطة هب أننى أصل الأنبوبتين بعضهما ببعض، وأجعل الكرتين بحيث تكون إحداهما فوق الأخرى فماذا يحدث؟

- لست أدرى . . وإنما يرجح أن يمتزج السيالان ويشغلا الفراغ كله.

- ذلك ما يخيل إلى أيضا . . وحينئذ لا تكون هناك روح وحيدة منعزلة، بل روحان أصبح اتحادهما وألفتهما بحالة لا تبيح العلاقات الواقعية إدراكها . .

ماذا بك؟ ألا تعتقد ذلك؟

- لست أدرى ولكن تلك الفكرة تبدو لى وحشية، بل إنه لا يمكننى أن أتصور أنك أجلتها بذهنك . .

كيف؟ أتتخذ محض المصادفة هاديا لك فى اختيار كائنين ليس بينهما سابق معرفة، بل ربما ينشأ بينهما كره وبغض، ثم تفرض عليهما نوعا من الامتزاج والخلطة القوية التي تصل إلى مالا يمكن تصوره أو تخيله؟ . . وكل هذا لا لعلة، وإما لمحض حب الاستطلاع . . على أن ذلك ليس لحب الاستطلاع، فماذا ستعلم من نتيجة محاولتك؟ . .

لاشيء . ذلك أنه على فرض أننا بصدد كائنات حساسة شاعرة فإنك عاجز كل العجز عن الاتصال بها .

كان جيمس ينظر إلى فى رزانة يشوبها الحزن ثم قال:

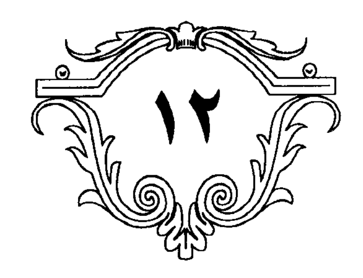
- إنك بالغت فى ظلمى . . إنك تعلم أننى لست رجلا شريرا. كلا . . لقد ذقت الآلام عن كثب، وشعرت بمرارتها، فلن أكون سببا لإثارتها عند الآخرين . . وإذا كان الآخرون يلوموننى على هذه التجارب، فليس من المستحيل أن ننتحل لهم العذر، ولكن إذا أتى هذا اللوم منك . . كان ينبغى أن تفهم منذ عهد بعيد أننى ما كنت لاشتغل بهذه الأشياء الخطرة لو لم يكن عندى الأمل فى أنها ستنير السبيل إلى مجهولات لايحصيها العد . . أحسن بى الظن ، إني أعدك بعدم الاستمرار فى هذه الأبحاث بمجرد عثورى على ما أنا بصدد البحث عنه .

– كلا يا جيمس إني أرجوك رجـاء حارا أن تدع الأمـور على ما هى عليه. . اعدل عن هذا . . سأنبئك بأمـر كان يجب أن أخفيه عنك. إنى أؤكـد لك أنه إذا لم تنصـرف عن اتبـاع هذه السـبل الخطرة من نفـسك فسيجبرك الآخرون على تركها فأجاب بسرعة .

– آه . هل حدثوك بشيء؟ ذلك من الأسبـاب التى تدعو إلى الإسراع فيما أنا بصدده . . وسأقوم بهذه المحاولة مباشرة .

إنى لا أوافقك على ذلك . . ووداعا .

خرجت، وما أن وصلت إلى الشارع حتى أسفت على ماقلت .



تلقيت فى صباح الغد بالفندق الرسالة الآتية «صديقى العزيز»، أرجو ألا تدع العناد يستولى عليك، فإنى أربأ بك وبنفسى عن ذلك ولقد حررت من توليتهم بعنايتك، فاحضر لأنك الشخص الوحيد الذى يمكننى أن أتحدث إليه عن تجاربى.

وأنا فى حاجة إلى الحديث عنها، على أنك تتأجج شوقا إلى معرفة ما حدث. صديقك .هـ. ب. جيمس».

وما أن قرأت الرسالة حتى قفزت فى سيارة صارخا فى وجه السائق: «مستشفى سان برنابيه» وحينما وصلت أنبأنى البواب، الذى أصبح صديقا لى، عن موضع جيمس الذى كان قد دعى منذ قليل إلى أحد الأواوين. فصعد ولمحت -من بعد- وجهه الحزين يضئ حينما رآنى، ثم أقبل نحوى وأخذ بذراعى فى مودة قائلا فى صوت خافت:

ليسترح بالك فقد كسرت الكرتين. . غير أننى أسفت لغيابك وسأشرح لك السبب بعد قليل. . انتظرنى هنيهة.

ثم مضى خلف حجاب أقاموه حول سرير ليكشف على امرأة مريضة، فمكثت أنتظر، وما أن مضت بضع دقائق حتى أتى وقادنى إلى السطح المطل على النهر.

- وإذاً ياجيمس؟ أأدت التجربة إلى لا شئ؟

- لا شيء؟ كلا.. ولكنها أدت إلى نتيجة غريبة جدا غير أنها محزنة.

- محزنة؟ إنك لتبعث فى نفسى الرعب.. ماذا حدث؟

- ليس فى الأمر خطورة.. ألم نعتقد كلانا أن سيال الكرتين سيشغل كل المكان؟ لقد تبينت أن هذا خطأ، فإنى حينما عرضت الكرتين الملتحمتين ببعضهما للأشعة لم يضىء منهما إلا واحدة هى التى وضعت إلى أعلى.

- إن هذا لغريب.. فكيف تعلله؟

- إنى لا أعلل شيئا ياصديقى.. إنى لا أعلل قط شيئا وإنما ألاحظ.. إذا، اجتمع سيال الكرتين فى الكرة العليا.. حسن.. والآن قل لى.. أتعتقد أن ضوء هذه الكرة، ازداد عن المعتاد لمعانا أم نقص؟

- ازداد طبعا إذ إنه اجتمع..

- كلا ياعزيزى وهذا هو المحزن.. بل لقد كاد الضوء أن ينعدم.. ماذا تعنى تلك الظاهرة من معنى عميق لا ندركه؟.. وعلى أية حقيقة عاطفية أو روحية تدل؟.

من المحتمل أن يجهل كلانا ذلك إلى الأبد.. ولكننى -أما هذا النور الكابى الذى يوشك أن يكون رصاصيا، وهذه التيارات التى أصابها الضعف- وأصبحت بطيئة، فكرت فى ثورة ضميرك، وشعرت بعدالتها شعورا لم أكن أجده فيما مضى.. وقلت لنفسى: إن احتمال كونى السبب فى تعذيب كائنين -مهما يكن هذا الاحتمال ضعيفا جدا بحيث لا يكاد يبلغ واحدا فى المليون- يكفى لأن يكون باعثا على إطلاق الحرية لهما.. ويمكنك أن تتخيل الفترة الغريبة المؤلمة التى قضيتها نهبا لهذا التفكير، والتى أخذت أبدأ فيها وأعيد جملة صاحبنا هملت «الموت نوم

فحسب» وقلت لنفسى: «أنه بعد هـذه الحياة التى ترهق الإنسان بالتعب، يكون من القسوة ألا ينعم الشخص بالنـوم والراحة». . وأخيـرا اخذت قدوما كسرت به الأنبوبة. ثم غيرت وضع الكرة.

وهل أصبحت فارغة؟ بالطبع.

- آه، خيـرا فعلت. . إننى سعيـد بهذا، وسأكون أكـثر سعادة لو وعدتنى بأن تقف عند هذا الحد. .

وبما أنك وصلت فى هذه الأبحـاث إلى نقطة مهمـة، وبما أن أبحاثك أصبـحت واضحـة المعالم مـحدودة، فإنى لا أرى لـك بعد ذلك إلا أن تسلك سبيلا من اثنين: فإمـا أن تذيع هذه الأبحاث وأن تجربها من جديد بمشهد من العلماء، وإما أن تعدل عنـها لئلا تضيع بدون جدوى منصبك وأصدقائك.

أما فيمـا يخصنى فإنى -على أى وجه- سـأفارقك آسـفا. . ذلك أن أعمالى تقترب من نهايتها، و لا يمكننى أن أمضى حياتى بانجلترا. سأغادر انجلترا بعد خمسة عشـر يوما وأستطيع أن أذكر لك أننى أغادرها مطمئن النفس لو أقسمت. .

- لا تكن عاطفـيا ياعزيزى. . فـأنا أعلم أنك بعد أن تقضى بفـرنسا خمسة عشر يوما ستنسانى نسيانا مطلقا. .

ولكنك على حق فى رأيك بأنه من العبث الاستمرار فى إجراء تجارب متـشابهة مادمت لا أريـد -مهما كـان الثمن- أن أذيعهـا. . لم يعد فى عزمى إذاً إجراء تجارب. . أو اذا أردت التحـديد، لم يعد فى عزمى غير إجراء تجربة واحدة. . إذا سمحت بهـا الظروف، فإذا لم أوفق فيها فكل ما قمت به يصبح حلما مفجعا.

- وستطلق لوليم سلاتر الحرية.

- بل تحرره أنت بنفسك هذا المساء.

وفى المساء كسرت الكرة رقم١، غير أننى قبل كسرها احتفظت بها طويلا بين يدى، هل سأضع حدا -بكسرى هذه الكرة- لحياة وليم سلاتر الثانية القصيرة؟ لم يكن هناك من سبيل إلى معرفة الحقيقة، ولذلك كان أسلم طريق هو ترك الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى، فتركت الكرة تقع على جسم صلب وخيل إلى أنه امتزج بصوت انكسار الزجاج صوت يشبه النوس ضعيف بالغ الضعف يلوح كأنه بعيد بالغ البعد، ومع ذلك فقد كان مسموعا.

استطعت أن أؤكد للدكتور دجبى حينما قابلته أن جيمس عدل عن الأبحاث التى كانت مصدر فزع عند أولياءالأمر فى المستشفى، ولكن دجبى لم يكن يجهل ذلك، وما من شك فى أن طريقه إلى المعرفة كان جريجورى. فأجاب:

- **إنى سعيد بنبئك هذا فما كان فى استطاعتنا ان ننقذه فترة أطول من ذلك.**

لم أشأ أقول له أن جيمس استثنى -حينما وعد بالعدول- تجربة واحدة يجريها إذا أتاحت له الظروف إجراءها، وكنت أكاد أوقن بأن صديقى عندما استثنى تلك التجربة كانت عنده فكرة معينة محددة مهدت لى معرفتى به أن أحرزها. لقد رأيت أن عدم توفيقه فيما حاول من المزج بين روحين أو -على حد تعبيره- بين طيفين سيالين خيب -فى مرارة- أمله، ولكن شعوره بصدد ذلك ليس شعور عالم أخفق فى تحقيق فرضه. فجيمس عاطفى، والعاطفة تقوده فى ذلك، هى شعور حاد عميق موجع بأثر فرقة الموت الأبدية فى بنى الإنسان، وكثيرا ما حدثنى عن الكلمات التى يتمنى الإنسان من أعماق قلبه أن لو كان قد قالها، والتى لم يعد

يمكنه أن يقوله إلا لجثة هامدة، ولذلك كان من الطبيعى أن يجذبه ويصل إلى شغاف قلبه احتمال إمكان الوصول إلى عشرة أكثر دواما وأطول زمنا.

إنه بدلا من أن يرى القوة الحيوية تزداد باجتماع روحين فى عالم أطيافه الغريب كما كان يأمل ويرجو -رأى أنها- على العكس، فكاد تطفىء إحداهما الأخرى، ومع ذلك فإن جذوة أمله لم تخب، ذلك أنه بدون شك فكر فى أن الإخفاق أتى من إن الكائنين اللذين قرب بينهما لم يخلقا ليمتزجا، وقدر أنه حينما يمتزج كائنان بينهما انسجام كامل فإن نتيجة ذلك تكون حالة أرقى مما لو بقى كل منهما منفردا. لقد قلت إن جيمس يخفى تحت مظهره الساخر كائنا عاطفيا يؤمن بالصداقة والحب. فالتجربة الوحيدة التى استثناها إذًا هى أنه لو أتاحت له الظروف أن يشهد احتضار كائنين كانا فى الحياة الواقعية مثالا للانسجام والتناسق فإنه يحاول أن يجمع بينهما أيضا بعد الموت. ستقول إن هذا الظرف بعيد وقوعه، ولكننى لا أرى ذلك، فالواقع أننا نجهل ما فى الحياة من الآم ومن جمال مادمنا لم نختلط بحياة مدينة كبيرة كاختلاط رجل البوليس أوالطبيب. لقد شاهدت أثناء صلتى بالمستشفى، طوال شهرين كاملين، حالات كثيرة شديدة الغرابة فلم أعد استبعد شيئا، ولكن إقامتى بلندن انتهت تقريبا، ووقر فى نفسى أننى سوف لا أشاهد هذه التجربة الأخيرة للدكتور جيمس لو سمحت له الظروف بإجرائها. وفى أثناء الخمسة عشر يوما الأخيرة لم أره غير مرة واحدة. ذلك أننى كنت استنفد كل وقتى تقريبا فى العمل، ثم إننى تقابلت فى السفارة بصديق فرنسى كان يقوم فيها بعمل السكرتير وكثيرا ما أمضينا معا ساعات المساء، لذلك لم أذهب إلى مستشفى سان برنابيه إلا فى عشية سفرى فقد اتصلت بالمستشفى تليفونيا

لأسأل جيمس عما إذا كان يمكن مقابلته فطلب إلى -عن طريق بواب المستشفى- الحضور لمقابلته فى حجرته- حوالى الساعة التاسعة مساء.

لم يكن جيمس فى غرفته عند دخولى، فتناولت كتابا وجلست، غير أن الانتظار طال بى فكشفت، لأقتل الوقت، الستارة التى تحجب «الأطياف» على أمل أن أرى جيمس قد حررها حتى إذا لم يكن قد فعل طلبت منه الإذن فى أن أقوم أنا نفسى بذلك قبل السفر.

كانت «فقاقيع الصابون» فى مكانها العادى غير أننى دهشت عندما رأيت كرة جديدة تحمل رقم ١٠و١١ مجرد عن الاسم، ففهمت تواً أن جيمس قام بعملية المزج التى صدمتنى فى شعورى، وأحسست بأننى عليه حانق.. ١٠و ١١ بدون اسم .. من كانا هذين المسكينين؟ واستولى على نفسى قلق منهم لا يمكننى تحديده فى دقة.. لم تأخر جيمس؟ إنه أعطانى موعدا محددا وهذا التأخير الطويل ليس من عادته.

أخذت أدير الكرة المجهولة بين يدى. وبينما أنا كذلك إذا بيدين توضعان على كتفى وجيمس يقول مرحا «مسكين أنت يا يوربك».. فأدرت وجهى نحوه ولشد ما كانت دهشتى من التحول الذى شاهدته على قسمات وجهه. إنى لم أر فى حياتى مطلقا كائنا إنسانيا يتحول هكذا من حالة إلى حالة أخرى فى قليل من الأيام. فقسمات وجهه التى هى عادة متغضنة جافة يلوح عليها الآن الهدوء والطلاقة، ولم تعد ابتسامته ابتسامة سخرية بل ابتسامة بشاشة.

- ماذا حدث لك يا جيمس؟

- حدث لى؟ لاشىء.. ولم هذا السؤال؟

- آه. أيرى هذا؟.. إننى حقيقة سعيد، وسأريك السبب.. هل لك يا صديقى العزيز أن تضع الكرة التى بين يديك، والتى تتأملها بوجه

عبوس، فوق المدفأ. . حسن. . ساعدنى الآن على إخراج الآلة من ركن الغرفة هذا. . شكرا. . إلى الشمال قليلا. . أطفئ النور الآن.

وما إن أطفأت النور حتى ندت عنى صرخة كان الباعث عليها ما رأيت على المدفأ من ضوء لطيف يشع عن تلك الكرة الزجاجية، هذا الضوء لا يمكن تشبيهه إلا بالبدر فى ليلة من ليالى الشرق أو من ليالى اليونان، أثناء الصيف حيث السماء صافية والبدر فى أوج لألأته، وفى ثنايا هذا التألق يتحرك تياران أشد إضاءة وأكثر لمعانا، ويتحرك بتحركهما مجموعة من النجوم الماسية المتوهجة.

- ياللعجب الساحر؟. . إنها لمعجزة أن تصل إلى مثل ذلك يادكتور. .
تركنى الدكتور فترة أشاهد هذا المنظر الباهر، ثم أضاء الحجرة وقص على ما يأتى: فى ملعب مجاور للمستشفى يقوم منذ خمسة عشر يوما شخصان بعرض ألعاب بهلوانية يرقصان فيها على الحبل. لم ير جيمس هذه الألعاب غير أن دجبى رآها، ووصفها لجيمس، وحدثنى عنها فيما بعد، وكان يرى أنها منظر قادر فى نوعه لا يكاد الإنسان يصدق ما يشاهده فيه من مهارة وحذق بالعين. وكان اللاعبان، تد وفرد هنلى أخوين شقيقين وسيمين يتشابهان إلى درجة غير مألوفة، وقبل أن يبدأ فى العمل يغطى الملعب بستار من القطيفة السوداء يظهر فوقها -أثناء قيامهما المذهل- جسمان شاحبان، تضيئهما أنوار كشافة، هما جسما الأخوين هنلى.

كان نجاح الأخوين كبيرا جدا حتى إن إدارة الملعب طلبت إليهما مد التعاقد أسبوعا آخر. فماذا حدث أول ليلة من هذا التعاقد الجديد؟ لا ندرى والبوليس الآن بسبيل البحث، ومهمايكن السبب فإن أحد الأسلاك الحديدية المتصلة بالحبال انقطع فسقط الأخوان، وكانا على ارتفاع كبير،

وأصابتهما رضوض خطيرة. وما لبثا -بعد أن نقلا إلى المستشفى- أن مات أحدهما وتبعه الآخر بعد عدة دقائق.

وقال لى جيمس: أتى بهما إلى المستشفى إذاً، ورافقهما أصدقاؤهما الذين حدثونى عن اتحادهما الوثيق، وعن قوة العاطفة التى ألفت بين قلبيهما، وعن عملهما المشترك، فلم يمكننى -أمام هذه الفرصة النادرة- أن أكبت رغبتى فى القيام بآخر تجربة أريد إجراءها وكنت قد حدثتك عنها. اطمئن فما كان لجريجورى من الأمر شىء، إذ أنى لم استعن فى عملى هذا إلا بعامل يشتغل فى المعمل لم يفهم فى الموضوع شىء من نقير.. وعدت إلى حجرتى الساعة الثالثة صباحا فجمعت هذين الطيفين ببعضهما، وجلست أشاهد المنظر الباهر الذى أعجبت به الآن.. أتنصحنى الآن بكسر هذه الكرة؟..

- كلا ياعزيزى الدكتور، فإنى وإن كنت لا أعلم ما يحدث فى داخل هذه الكرة غير أنى أستبعد ألا يكون كل هذا الجمال دليلا على السعادة الحقة. ورغم رغبتى القوية فى المكث فقد اضطررت -بسبب التأخير الكثير- أن أشرح أننى جئت لأودعه قبل سفرى.

سفرى.

فقال:

- هذا صحيح.. إذا وداعا.. هل ياترى سنتلاقى؟ إن الحياة حينما تفرق فإنها تفرق بقسوة. ومهما يكن الأمر فإنى شاكر لك هذه الأشهر التى كنت فى فيها صديقا مخلصا أمينا على السر.. ولهذا الإخلاص المصطفى، ولهذه الأمانة البالغة على ما استودعتك من سر، أرجوك أن تقدم لى خدمة أخرى.. لم يؤن أوانها بعد.. وربما لا يحين موعدها قط، غير أنه من المحتمل أن أحتاج إلى عونك يوما ما، أما المكان الذى

سأكـون فيـه فلا علم لى به، ولكنى سـأرسل إليك برقيـة، وأرجوك أن تحضرمهـما كان عملك حينئذ، وأن تتخـذ أسرع طريق لتكون بجانبى. . إنك تعرفنى حق المعرفة، وتعلم أننى حينمـا أطلب إليك أمرا غريبا كهذا فمـا ذلك إلا لأسباب خطيـرة. . وإنى أتعهد ألا أدعوك إلا مـرة واحدة طول حياتك. ولكنى -لذلك- أطلب منك العهد والميثاق بالوفاء.

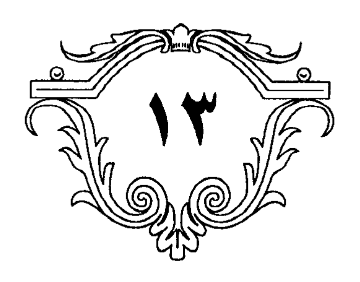
فقلت متأثرا بحديثه الخارج من أعماق قلبه:

- لك عهدى وميثاقى.

فأجاب:

كتب الله لك التوفيق فى حلك وترحالك.

ورافقنى حـتى وصلنا الباب. كان المساء جـميلا غير أن الـقمر وسط الكواكب أقل ازدهارا من روحين كانا يضيئان منذ لحظة فوق المدفأة.



حينما تنبأ جيمس بأنى سأنساه كان موقفى من ذلك موقف المحتج. ومع ذلك فقد كان فيما قدره على حق. ففى أثناء السنين التى تلت افتراقنا شغلتنى أعمالى كثيرا.

ولم تتطلب منى الظروف العودة إلى انجلترا. نعم إنى كنت أفكر أحيانا فيما قضيت من أسابيع غريبة، ولكنى كنت أفكر فيها كما لو كنت أفكر، لافى ذكريات حقيقية، وإنما فى قصة خيالية من مقدمتها إلى ختامها.

أما جيمس فإنه كتب إلى فى أوائل سنة ١٩٢٦ ليؤكد لى وعده بالعدول عن أبحاثه، ثم كتب لى ثانية فى أكتوبر سنة ١٩٢٧ ليخبرنى بأن الآنسة أديث فيليبس فقدت والدها وأنه على وشك الزواج بها. لم يثر ذلك فى نفسى أية دهشة. وما إن أرسلت لهما هدية صغيرة حتى تلقيت خطاب شكر من أديث فيليبس، أو بتعبير أدق، من أديث جيمس تعرفنى فيه حاجتها إلى الراحة عدة أشهر فى جنوب فرنسا، وأن زوجها سيأخذ إجازة من المستشفى ليرافقها فى سفرها، وأنهما سيمران بباريس فى الأسبوع التالى، غير أننى للأسف كنت فى الريف حينما وصل هذا الخطاب فلم أرهما عند مرورهما بباريس.

وفى شهر ديسمبر تلقيت من جيمس بطاقة عرفت فيها أنه يعيش مع زوجته فى كاب مارتن، ويسألنى فيها عما إذا لم يكن فى عزمى أن أزورهما، وعما إذا كان فى نيتى السفر أثناء الشتاء أم أننى سأبقى بباريس فيصلنى فيها تلغراف منه عند الحاجة إلى ذلك؟ فأجبته بأننى أرغب فى

أن أمكث بمنزلى طول فصل الشتاء للعمل إلا إذا اقتضت غير ذلك ظروف ليست فى الحسبان.

فى منتصف يناير ١٩٢٨ طلب إلى كاتب تربطنى به صلة الصداقة أن أحل محله فى إلقاء محاضرة فى كوبنهاجن، لا يمكنه إلقاؤها بسبب اعتلال صحته، فقبلت، لأسدى إليه معروفا، ، ولأرضى رغبتى فى معرفة الدانمارك، تلك الرغبة التى ربما كان من مثيراتها قصة هيلدا جيمس التى لم أكن قد نسيتها، وكان المقدر ألا يستغرق سفرى سوى خمسة أيام.

وصلت إلى كوبنهاجن صباح يوم كان من المفروض أن أحاضر فى مسائه، وما إن نزلت من القطار حتى قدم لى أحد الأشخاص الذين استقبلونى برقية باسمى. فتحت البرقية فإذا بها: «احضر -جيمس، فلوريدا، كاب مرتان» فصعقت. . لم يكن قد دار بخلدى أن أعرف جيمس بهذا السفر القصير، فكيف أتصرف وقد وطن نفسه على الاعتماد على عهدى، ذلك العهد الذى كنت مصمما عليا لوفاء به. غير أن الظروف ستضطرنى أن أفى به فى بطء لم يكن متوقعا.

أنبأت المشرفين على تنظيم المحاضرة -وكانت مفاجأة غير سارة -بأن أعز أصدقائى على نفسى يحتضر، وأننى لذلك أريد العودة، وأرجو معرفة موعد أول قطار، فعلمت -على أسف- أن ذلك لا يكون إلا من الغد صباحا.

فقضيت يومى مع بواب الفندق انظر مواعيد القطارات المختلفة فوجدت أنه إذا صاحبنى التوفيق، ولم يحدث طول رحلتى تأخر ما، فإننى لا يمكننى أن أكون بجانب جيمس إلا ثالث يوم، وبما أن برقيته قد مضى عليها أربع وعشرين ساعة، فإنه سيقضى بأنى فى غاية الإهمال،

لذلك بحثت فى أمر السفر بالطائرة فعلمت أن الجو غير ملائم للسفر وأن حركة السفر شتآء غير منتظمة. فلم يبق إلا أن أرسل أنا أيضا تلغرافا إلى جيمس لأشرح له السبب فى إبطائى وأعـرفه بعذرى، وهذا هو ما فعلته. أما المحاضرة فقد ألقـيتها وأنا متأثر، فجاءت خيرا ممـا ألقيه عادة، وجفا النوم جفنى ليلا، ثم تركت كوبنهاجن فى الصباح.

وفى أثناء السـاعات الطويـلة التى قضـيتـهـا فى القطارات الدنمركيـة والآلمانيـة، والفرنسـية، وفى الجـمارك، وفى مكاتب جـوازات السفـر، حاولت عبثا أن أتنبأ بما سـيكون عند خاتمة مطافى. نعم إن شعورى كان يتجـه بالطبع إلى نواحى الحزن والوفاة، إذ كـانت العلاقة الوثيقـة القوية التى تربطنى بجـيـمس، وتجعـلنى بالنسـبة له لا أعـوض هى مـعرفـتى بأبحاثه، وتجاربه التى شاهدتها، فإذا كان فى حاجة لا تحتمل التأخير إلى رؤيتى فـمـا ذلك إلا لأعاونه أثـناء تجربة من هـذا النوع، ولم يكن من العسير -طالما كان الأمر فى نظر جيـمس مهما إلى هذا الحد- التنبؤ بهذه التجربة. هل سيقـدر لى الوصول فى زمن مناسب، هل سيقع كلانا فى مشـادة مع السلطة الإقليـمية الحـاكمـة، لقد تذكـرت بسرور أن السـيد ريبلدى، حاكم إقلـيم الألب، ماريتيم كـان صديقا لوالدى. فـيمكن إذاً الاعتـماد عليـه فى تسهيل كـثيـر من الأمور. أخذ القطـار ينحدر وسط أشجـار الزيتون والأنهـار ذات المجرى المثـقل بالحصى، وبعـد أن غادرنا مرسـيليا تراءت لى زرقـة البحر الـشديدة والشراع البـيضـاء، فى صورة حزينة. وبـعد لأى، وقد يئست من الوصول، وقف القطار فـى محطة روكبرون -كاب مـرتان حوالى الساعة الثانية بعـد الظهر وكانت الشمس ساطعة. لم يستقبلنى جيمس بالمحطة، غير أن هذا لم يدهشنى، فقد كان من المستحيل عليه أن يعرف موعد القطار الذى يقلنى، فأخذت سيارة إلى مسكنه. كان هذا المسكن بيتا صغيرا تحيط به الأشجار وسط حديقة ملأى

بالأزهار وإنى لأذكر للآن تلك الرائحة الجميلة التى أخذت بها بينما كنت أدق الجرس، ومالبثت أن رأيت خادما مسرعا نحوى يلبس ملابس سوداء، وخيل إلى أننى أعرفه، وبينما كان يخطو مخترقا الحديقة ليفتح لى، كنت أحاول أن أتذكر المكان الذى قابلته فيه. وما إن صار تجاهى حتى عرفت أنه بيجز، ذلك الجندى الذى كان تابعا لجيمس أثناء الحرب والذى تقاسمت معه خدمته لمدة أشهر.

– نهارك سعيد يابيجز ها أنت ذا من جديد تعمل مع الدكتور؟

– نهارك سعيد يا سيدى.. إننى وزوجتى هنا مع الدكتور جيمس والسيدة حرمه، غير أننى شديد الأسف الآن إذ أخبرك بأن الدكتور مات. ألم تتلق برقيتى الثانية؟

–كلا.. مات؟ جيمس؟.. منذ متى؟.. لقد وصلنى تلغراف منه منذ أربعة أيام.

– إنه كان قد مات ياسيدى.. تفضل بالدخول. ثم حمل حقيبتى إلى المنزل وقدم إلى مقعدا فى الحديقة وقص على ما يأتى:

– إنك لتعلم ياسيدى إن زوجة الدكتور جيمس كانت مريضة جدا وقد أجريت لها عملية قبل موت أبيها بقليل.. ولم تكن فى صحة جيدة حينما تزوجت الدكتور بل كان يرى على وجهها علامات الموت، ومامن شك فى أن الدكتور كان يرى ذلك ويعلمه.. لقد قلت دائما إن الدكتور قديس، وأنه لم يتزوج الآنسة أديث إلا ليتمكن بسهولة من إحاطتها برعايته وعنايته. وحينما عرض على الدخول فى خدمته ومرافقتهما إلى فرنسا قلت لزوجتى: «ليس هذا مكاناً دائما ولكن يجب أن نقبل..» لم نأسف قط على قبولنا ياسيدى.. فما كان فى العالم خير من الدكتور وزوجته وقد كانا يحبان بعضهما حبا شديدا.. ومارأيت فى حياتى قوما

مثلهما سعداء مع قلة المورد وكانا -عندما يكون الجو جميلا فى أثناء النهار- يذهبان معا للجلوس على شاطئ النهر، أما فى المساء فإن الدكتور يقرأ بجانبها بصوت مسموع. . وهكذا أمضت السيدة حرم جيمس الشهرين الأولين وهى متمتعة بالصحة النسبية، ثم أخذت منذ منتصف ديسمبر فى الشحوب، والتزمت شيئا فشيئا الصمت. .

وما كان الإنسان ليخفى عليه -اذ ذاك- أنها فى نهاية أيامها وأنه لمن حسن الحظ أن الدكتور استمر حتى آخر ساعاتها يدخل فى روعها الأمل فى الشفاء.

كان يقول لها أنه سيعالجها بعلاج جديد اخترعه. . وكان يحضر من أجل ذلك، فى حجرة من المنزل، أجهزة غريبة، فهذا ناقوس زجاجى كبير الحجم يرفعه الإنسان ويخفضه بالضغط على قطعة مستطيلة من الحديد، وتلك كرات زجاجية، وثم آله مغطاة بقماش أسود. . وكان يسمى الدكتور هذه الحجرة معمله. . ولم يكن يباح لى ولا لزوجتى الدخول فيها. . ومع ذلك فلم أر الدكتور ينتفع قط بهذه الآلات إلا. . عفوا إنى قد نسيت أن أقول لك أهم شىء فى الموضوع. . منذ خمسة أيام أصاب زوجة الدكتور إغماء فمكثت فاقدة شعورها فترة طويلة، كان الدكتور وزوجتى كلاهما يسهران بجانبها. وحوالى الساعة الواحدة صباحا أشار الدكتور على زوجتى بأن تذهب لتنام، وأنه سيدعوها إذا كان بحاجة إليها، ولكنه لم يدعها. فلما استيقظت حوالى الساعة الثامنة صباحا ذهبت إلى حجرة المريضة. . فدهشت إذ لم تجد السيدة على سريرها ولم تر للدكتور أثرا، وكان على المنضدة الصغيرة خطاب باسمى. . فأتت زوجتى تعدو فزعة هلعة وبيدها الخطاب الذى خطه الدكتور المسكين. . قرأت هذا الخطاب وهاكه فاقرأه بدورك.

أخرج **بيجز** من جيبه خطابين قدم إلى واحدا منهما فقرأت «بيجز قم بكل دقة بما أقول لك مهماتراءى أنه غريب مدهش.. إن زوجة جيمس ماتت اليوم صباحا ولا رغبة لى فى البقاء بعدها وجثمانها فى الحجرة التى كنت أدعوها المعمل، لا تدخلها ولا تمس شيئا منها، أرسل التلغراف الذى تجده فى هذا الظرف إنه موجه إلى الضابط الفرنسى الذى كان معنا فى ايبر، فإنه يحضر مباشرة ويقوم بكل مايلزم. لا تشغل نفسك بشىء، إذا. أرسل التلغراف فقط وانتظر، كل شىء سيكون على ما يرام. وداعا.».

- وحينئذ يا بيجز..

- انتظر ياسيدى. كان مع هذا خطاب آخر باسمك، لأجل أن أسلمه لك عند وصولك.

وهنا شعرت أن نغمات صوته ونبرات حديثه تحمل فى ثناياها شيئا من التأنيب، كان الخطاب الذى قدمه لى مقفلا ففتحته وقرأت: «سأشق عليك يا صديقى، وربما حملتك مالا تكاد تطيق، غير أنك عاهدتنى، وما من شك فى أنك ستفى بعهدك وتفعل ما أطلبه. سيشرح لك بيجز ماحدث،وهو ماتوقعته منذ أمد بعيد. ستفهم حينئذ (بل إنى لا أشك فى أنك قد فهمت قبل الآن) لم كنت -أثناء قيامك بلندن- أتابع فى تحمس بالغ هذه الأبحاث التى كنت ترى أنها طائشة، ستجد بالمنزل معملا قريب الشبه جدا من ذلك الذى كنا نستخدمه فى سان برنابيه. وستجد تحت الناقوس الزجاجى الذى يتوسط الغرفة جثتى وجثة زوجتى. إنك تذكر الطريقة التى بها تفصل الكرة التى بأعلى الناقوس، فاستعملها بعناية، ثم خذ الكرة والحمها وضعها أمام الآلة السوداء التى تعرفها، وأرجو أن ترى حينئذ شيئا من اديث ومنى. لست فى حاجة بعد ذلك أن أرشدك إلى

ماأنتظر منك. فإذا وجدت طيفينا المختلطين يشبهان طيفى الأخوين اللذين تتذكرهما بدون شك، فإن رغبتى أن تحتفظ بالكرة، وأن تعهد بها إذا أمكنك إلى أنجالك، وأحفادك. إنى بالطبع لا أستطيع أن آمل الاحتفاظ بمثل هذه الكرة مدة طويلة، فهى قابلة للكسر بسهولة، غير أننى لم أسعد فى هذه الدنيا بحبى لاديث المسكينة إلا قليلا جدا، فإذا نلت بفضلك السعادة بضع سنوات فى عالم لا نزال نجهل أسراره، فإنك تكون قد سجلت -على ما أعتقد لنفسك عملا خيراً. .»

وما أن أتيت على هذه الجملة حتى قطعت القراءة وقلت فى حرارة:

- رحماك ياإلهى! لقد وصلت متأخرا جدا. . أين الدكتور وزوجته الآن؟

- إنهما فى المقبرة يا سيدى. . ولقد انتظرت، بعد إرسال التلغراف يومين. . ثم اعترانا -أنا وزوجتى- الخوف من العواقب، فماذا نجيب حينما يطلب إلينا السبب فى ترك ميتين من غير دفن. . إننا فى قطر أجنبى ولا أعلم من الفرنسية إلا كلمات. . فذهبت إلى الجهات المختصة وقدمت الخطاب الذى كتبه لى الدكتور وأخفيت خطابك، فحضر طبيب وكسر الناقوس.

- **كسر الناقوس**. لم يبق إذا من أمل يا بيجز. . ولكن لم كسره طالما كان من السهل رفعه كما حدثتنى؟

لست أدرى ياسيدى. . إنى لم أفهم ماقال. . ليس ببعيد أنه اعتقد عند دخوله، حينما رأى هذين الجسمين تحت الناقوس، أنه بصدد حالة اختناق. . وحينما انتهى من المعاينة والكشف قال إن الدكتور تناول سما. . هذا هو ما اعتقدت أننى فهمته منه، ولا تنس أننى أخبرتك بأنى لا أحسن الفرنسية. . ومهما يكن من الأمر، فإننى لا أتبين للآن ذلك

الذى كان يريده الدكتور ياسيدى.. لنفرض أنك جئت عقب وصول التلغراف إليك مباشرة، فماذا كنا نصنع مادام لم يكن على قيد الحياة؟

قطعت عليه حديثه، وطلبت إليه أن يقودنى إلى المعمل، فقد كنت أعلل النفس بالأمل وأريد أن أقدر مساعدة الحظ وبقاءالكرة، بحالها، لم تمس، غير أنى للأسف، وجدت الغرفة مملوءة بقطع الزجاج المتناثرة، ولم يبق من الناقوس ولا من الكرة إلا قطع صغيرة، وما من شك فى أن هؤلاء الذين وجودا الجثتين لم يعنهم من الأمر إلا إنجاز مهمتهم بسرعة، ولا لوم عليهم فى ذلك، وإلا فكيف كان يمكنهم التكهن بما فى الكرة التى بأعلى الناقوس؟

ويوجد أيضا ياسيدى هذه العلبة الصغيرة وقد ألصق بها الدكتور ورقة وأمرنى أن أسلمها لك وقد أخفيتها بحجرتى عند مجىء رجال الحكومة.

- علبة؟ وماذا تحوى؟

- لست أدرى ياسيدى.

فتحت العلبة فإذا بها كرة مثل ماكان بمستشفى سان برنابيه موضوعة على طبقة من الورق فشعرت بشىء من الأمل ورفعت الكرة فرأيت عليها بطاقة أعرفها جيدا «١٠ - ١١ ند وفرد هنلى»

مسكين جيمس أيكتب له النجاح فى جعل الآخرين يبقون بعد الموت، بينما يخفق بالنسبة للنفسه، مع شدة رغبته فيما أتاحه للآخرين؟

ذهبت إلى المقبرة أحمل أزهارا أضعها على قبر اديث وهوارد بروس جيمس، ثم سافرت فى المساء إلى باريس محتفظا بين يدى بالعلبة التى تركها لى جيمس. كانت العناية التى أسديتها إلى هذه العلبة شديدة، وذلك لما كنت أشعر به من ندم مبهم. حقا إنه لاعلم لى بنوع الحياة التى أراد جيمس أن يصير إليها مع من أحب، ولكننى عاهدته على أن أقوم

بما ينبغى ليصل إليها، فـإذا به قد حرم -برغمى، ما فى ذلك من شك، ولكن بسبب خطأ صدر مـنى -من ثمرة أبحاثه، ولقد تساءلت غـير مرة عما كان ينبغى أن أفعل. أكنت أخبر جـيمس قبل السفر إلى كوبنهاجن؟ لم يتـسع لى الزمن فضـلا عن أنى، إذا كنت قد لمحت تقـريبا مـايريده منى، فإنى لم أفكر قط فى وضوح، ولم يدر بخلدى أن جيمس يريد أن يموت فى وقت واحـد مع زوجتـه. أأنا المسئـول وحدى عن عدم الـفهم والتقدير؟ ألم يكن فى مقدوره -هو الذى يعلم غاياته وأهدافه- أن يتوقع كل العقبات وأن يتخذ لها العـدة، خصوصا وهو بصدد تجربة فريدة، إذا أخطأها التـوفيق فـلا يمكن إعادتهـا، ألم يكن يمكنه أن يعطى إلى بيـجز تعليمات محـددة، يتبعها إذا حالت الظروف دون مجيـئى؟ إنه اعتقد من غير شك أن بيجز لا يستطيع فهم شىء من ذلك، أو أنه لا يقوم به على مـا ينبغى مع أنـه يتطلب من العناية والدقـة الشىء الكثـير أخـذت هذه الأفكار تتـردد فى ذهنى حتى وصلت إلى باريس وأنـا فى شدة الإعـياء والحزن فقلت فى نفسى إن التفكير فى الماضى لا يجدى فتيلا.

مكثت مدة طويلة أمنع نفـسى عن التفكير فى تجـارب مستشـفى سان برنابيه، وخاتمة جيمس المحزنة، ولكنى منذ شهور أشعر بالمرض، وأشعر باقتـرابى من الموت، ولذلك بدا لى أن من واجـبى إذاعة قصـة يضعـها العـقل فى دائرة الخيـال، ومع ذلك فهى حـقيـقة واقـعيـة، أتاحت لى المصادفـات أن أشهدها، وهذه الإذاعة نفـسها هى الطريقة الوحـيدة التى أراها أهلا للاحـتفاظ فـى عناية بالغة بالكرة التى تحـتوى على طيـفى ند وفرد هنلى.

فى مساء الأمس، نظرت إليهما -وربما كانت تلك هى النظرة الأخيرة- بوساطة أشعة الآلة التى تركها لى الدكتور فلم أجد أن سناهما نقص عنه

يوم أن نظرت إليهما أول مرة فى حجـرة جيمس، وصدرت عنى صيحة إعجاب.

إن هذا البقـاء المدهش لظاهرة غاية فى الجمـال يزيدنى ألما على ألم إذ لم أتمكن من القيام لأديث جيمس وزوجها بمثل ذلك.

أما الكرة الزجاجية فقد وضعتها فى مهد تغطيه ستارة زرقاء، وتحيط به شبكة من الأسلاك الحديدية وهو موضوع على يمين مكتبى.

تمت بحمد الله

رقم الإيداع : ٤٧٣١ / ٢٠٠٤ م
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-5260-36-1

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١